



الجزء الثاني

obeikandi.com

أولاً : الدعوة والتكليف برسالة الإسلام

١ - التكليف العلوي: بالمواجهة .

ويأتي التكليف العلوي من المولى سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ .

أن يواجه البشرية ومتاعبها . وتبدأ معركة الدعوة إلى الله . قال تعالى :

﴿بِأَيِّهَا الدَّذِيرُ ① قُرْآنًا يَذُرُّ ② وَرَبِّكَ فَكَيْفَ ③ وَبِأَيِّكَ فَطَهَّرَ ④ وَالرَّجْزَ فَأَهْبِزْ ⑤ وَلَا تَسْتَنْ تَسْتَكْبِرُ

⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦﴾ [المدثر].

روى الإمام مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن سلمة . قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فيبيننا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجثت إلى أهلى فقلت: زملونى، فذرثونى. فأنزل الله تعالى : الآيات الموضحة عالية من سورة المدثر .

قال أبو سلمة : الرجز الأوثان . ثم حمى الوحي وتتابع ، وروى البخارى من هذا الوجه أيضاً .. وفى رواية الطبرانى مرفوعة عن بن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة صنع طعاماً لقريش فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فمنهم من قال ساحر، ومنهم من قال كاهن ، وآخرون قالوا ليس بكاهن .. وقالوا ليس بساحر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر.

فبلغ النبي ﷺ ، فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى الآيات كما تقدم .. والأسباب والمناسبات أمرها فى علم الله وما نود أن يتناوله الحديث هو ذلك التكليف والنداء العلوي لرسول الله ﷺ بالجهاد والمشفقة لندارة البشرية وتخليصها من شر الدنيا ونار الآخرة وتحمل متاعبها وأهوالها بطهارة القلب والذات والتكبير والتوحيد لله وحده ... ثم حمى الوحي وتتابع « هذا لفظ البخارى .. وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضى أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله : فإذا الملك الذي جاءنى بحراء » وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

مَا لَزِمَ ﴿١٥٨﴾ [العلق].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فلما أخبر خديجة الخبر قالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق - وانطلقت به رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل فقال هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى ^(١) .

وليسَت المعركة بالأمر اليسير.. فمن البداية وقف المكذبون في وجه الدعوة يصدون عن سبيل الله وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن شريق ، وأبو جهل بن هشام الذى توعد بقتل النبي ﷺ إذا عاد يصلي عند المقام .

روى الإمام أحمد عن بن عباس رضى الله عنهما قال : قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه - قال لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ... وقيل لأبي جهل ما منعك ؟ قال إن بينى وبينه خندق من نار ، وهولا وأجنحة ، قال رسول الله ﷺ لو دنا منى لا اختطفته الملائكة عضوا عضوا ^(٢) .

بدأت المعركة والبشرية في ضلال وعصيان وعناد وإصرار، ونادى محمد بن عبد الله ﷺ في بطن مكة وعلى رأس الصفا بأمر من الله مخاطباً الثقلين « الإنس والجن » ومخاطباً الأحمر والأسود ، والعربي والعجمي إني رسول الله ... فأمنوا بالله ورسوله . ﴿ قُلْ يَتَّأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ. وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » .

وفي رواية الإمام أحمد قال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من

(١) ورد بتفسير بن كثير ٤/ ٤٤٠ ، بن كثير ٤/ ٥٢٧ ، والبداية ٥/ ٢ ، والفتح ١/ ٨١ .

(٢) والبداية ٥٤/ ٢ .

أصحاب النار .

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال : « قال رسول الله ﷺ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأبأ رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » ، وفي رواية للإمام أحمد قول رسول الله ﷺ « نصرت بالرعب مسيرة شهر » أي نصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر للملئ مني رعباً ، وأحلت لي الغنائم آكلها ، وكان من قبلي يعظمون أكلها - كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك . إنها كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم^(١) .

٢- دعوة النبي أهل الكتاب لدين الله :

وأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الكتابيين والأميين إلى دين الله والدخول فيه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة] .

والكتابيون هم الذين أوتوا الكتاب الأول ، واختلفوا بعد ما قامت الحجة - والأميين هم الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين وهو التوحيد ، والكفر في قولهم إن الله هو المسيح ابن مريم أو هو ثالث ثلاثة أو هو ابن الله ، والافتراء في قولهم إن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه ، وذلك من مقولات أهل الكتاب كما تبين بالجزء الأول .. وقد

أخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كرجم الزاني وتحريم الربا كافة .. وجميعهم أخفوا خبر بعثة النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم بالبينات ، وليفرق بين الحق والباطل وليبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه . جاءهم الكتاب ليهديهم إلى طريق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ، وينجيهم من المهالك ، ويصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أنسب الأمور ويخرجهم من الظلمات إلى النور « ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات بتوفيقه وإرادته سبحانه وتعالى » ويهديهم سبيل السلام وهي طرق السلامة الموصلة إلى الجنة ، ودار السلام منزهة عن كل آفة ، ومؤمنة من كل مخافة ، وليس بعد الهدى والنور إلا العمى والضلال .

وقد بشر رسل الله جميعاً بوجود محمد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهجره وصفة أمته ، وقد بينا في الجزء الأول من الآيات والدلائل عن ذكر رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل ومنه حديث الإمام أحمد عن عطاء ابن يسار عن عبد الله بن عمرو في صفات رسول الله ﷺ في التوراة وقول عيسى عليه السلام في سورة الصف .

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِتَكْرُمُصَدَّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].
يقول الإمام القرطبي : ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعم اليهود والنصارى ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتبهم ببيان صفته ونبوته .

قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنِ اسَلَّمُوا فَقَدْ اَهْتَدُوا وَإِنِ تَوَلَّوْا فَإِنْسَا عَلَيْنَا الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرَتِكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران] .

فإن جادلوك بالأقوال المزورة والمغالطات فأسند أمرك إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ ، وعلى الله نصرك .

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله ﷺ لأهل الكتاب حتى أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] .

النصاب الذهبي في ميراث حضرة النبي ﷺ
 وكان يهود المدينة يقولون للكفار أطلّ زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم -
 فلما جاء رسول الله ﷺ كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ
 يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ
 ﴿٨١﴾ [البقرة] .

وفي الصحيحين وغيرهما ثبت أنه ﷺ بعث كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من
 عربهم وعجمهم الكتابي والامي يدعوهم إلى الله .. فيعد رجوع المسلمين من الحديدية في
 أواخر السنة السادسة من الهجرة كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمم «إلى هرقل عظيم الروم
 وملكهم، وهو الذي حن قلبه للإسلام ولكن غلبه حب الملك على الإسلام» ، « وإلى
 النجاشي ملك الحبشة الذي أسلم على يد عمرو بن أمية الضمري» ، « وإلى كسرى ملك
 الفرس مع عبد الله بن حذافه السهمي - فمزق كتاب رسول الله ، فلما بلغ رسول الله ﷺ
 قال : مزق الله ملكه .. وأجيب دعوة النبي ﷺ فقتله ابنه شيرويه »^(١) .

وإلى المقوقس عظيم القبط وأمير مصر من جهة قيصر مع حاطب بن أبي بلتعة ومعه
 قول الله تعالى :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
 شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
 ﴿٦١﴾ [آل عمران] .

فأكرم المقوقس رسول الله ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بجاريتين لهما مكان عظيم في
 القبط ، وأهدى إليه بغلة ليركبها «ولم يسلم» - إحدى الجاريتين « مارية » التي تسرى بها
 عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاهما لحسان بن
 ثابت ؓ^(٢) . وتقول السيرة أن البغلة بقيت إلى زمن معاوية ؓ .
 ٣- مواجهة المشركين بشهادة الله :

وواجه رسول الله ﷺ المشركين بشهادة الله الذي يقضي بالحق وهو خير الفاصلين

(١) نقلًا من هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص ٥٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (وفقرات الكتب المرسلة إلى ملوك الأرض لخصت من كتاب هداية
 المرشدين للشيخ علي محفوظ رحمه الله (ص ٥٤) .

المتصرف وحده مالك الملك يعطى الملك من يشاء ويسلب الملك ممن يشاء ويعز من يشاء بإعطائه الملك والسلطان ويذل من يشاء بسلب الملك منه وتسليط عدوه عليه ، فكل شيء بيده سبحانه وإليه لا إلى غيره ، ولا يقدر على ذلك أحد غيره .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْعَمِيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

وليس بعد هذه الشهادة شهادة على صدق البلاغ ، ومن أعظم شهادة وأكبر من العالم بالحق من خلقه والمبطل ؟ والرشيد والسفيه ؟ والمطيع والعاصي ؟ .. شاهد بصدقه سبحانه وتعالى .. وهو الذي أوحى إلى رسوله ﷺ هذا القرآن ليبين للذين لم يؤمنوا عذاب الله ونكاله وعقابه ، وينذر به من بلغه القرآن من سائر الخلق .

وأما المشركين الذين يعترفون مع الله بمعبودات غيره من الأصنام والأوثان فلا إقرار ولا إعراف بهم وبما يعبدون.. وإنه لمعبود واحد لا شريك له ولا ندعوا غيره لها ومعبودا.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْتَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ قُلْ أُنزِلَتْ آيَاتُ كُتُبٍ كَبِيرَةٍ قُلِ اللَّهُ شَهِدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَتَىٰ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَجِدْ وَإِنِّي بِمَا تَشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام] .

وجاء في الخبر « من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذه أو تركه » .

وقال مقاتل « من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له » .

وقال القرطبي « من بلغه القرآن فكأنها رأى محمداً ﷺ وسمع منه » ^(١) .

٤ - الفرار إلى الله وقاية وحماية .

وقد علم الله تعالى ما يصد رسوله ﷺ من عناد المعاندين ، وأن طبيعة النفس البشرية تضيق بالجهل والتعنت وأن رسوله عليه الصلاة والسلام يضيق صدره من الساخرين المستهزئين من أشرف قريش وصناديدها وهم كما جاء في التفسيرات « الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد مغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، والحارث بن

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٤٨٤ .

(٢) (ابن كثير ٢ / ٥٥٩) وروى عن سعيد بن جبير وعكرمه على سياق محمد بن اسحاق .

النصاب الذهبي في ميراث حضرة النبي ﷺ
الطلاطة « وقد أهلكهم الله جميعاً ، وغيرهم ممن كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام
واستهزءوا به وعلى رأسهم « بن عبد العزى بن قصي الذي دعا عليه رسول الله ﷺ فقال :
اللهم اعم بصره واثكله ولده لكثرة أذيته لرسول الله ﷺ ... وقد أهلكهم الله جميعاً » (١) .

﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَاكَ بَيِّقٌ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَخَّ بِمِحْمَدٍ رَيْكَ وَكُنَّ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾
وَأَعْبُدْ رَيْكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر] .

فكان بذلك باباً مفتوحاً لكل المؤمنين حينما ينتابهم أى أمر يكرهونه أن يتوجهوا إلى الله
ويفزعوا إليه سبحانه وتعالى بالشكر والطاعة والله كاف عبده ما أهمه وما أحزنه .
وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ففى صلاة العبد الراحة
والثقة والأمان والاطمئنان وكيد نحور المشركين والمستهزئين حتى يأتي الموت اليقين ،
فإذا ما أصاب الإنسان ضر أو مكروه فليسر بالتسبيح لله والتحميد والسجود ...
وإخلاص العبادة لله يذهب الله بها كل هم وكرب بإذنه تعالى .
قال عليه الصلاة والسلام « أرحنا يا بلال » (١) أى أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كانت قره
عينه فيها ﷺ .

لقد أراد الله سبحانه وتعالى تسلية النبي ﷺ عن قول المشركين حتى يبلغ الرسالة ولا
يبالى بهم . فقال سبحانه :

﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود: ١٢] .

وفي قوله تعالى ضائق به صدرك ولم يقل ضيق ليدل على إتساع صدر النبي ﷺ وقلة
ضيقه ، وما على رسول الله ﷺ إلا تبليغ الرسالة ، فإن الله مطلع على عباده وبصير بأعمالهم
وأفعالهم وسيجازيهم على أعمالهم .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] .

﴿ تَرَاتٍ تَوَلَّوْا فَمَا تَسْمَعُ لَكُمْ أَلْبَتَغُ وَاللَّهُ بِعِيسِيٍّ وَالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] .

بعد هذا التحدي والإعجاز القرآني الذي لا يقدر على تنزيله إلا الله سبحانه :

(١) في العلل من حديث بلال ولأبي ذر نحوه (إحياء علوم الدين ١ / ١٦٥) بإسناد صحيح - ورواية
أخرى لأحمد وأبي داود عن حذيفة ؓ .

﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١١) [هود].

٥ - عمر الدعوة إلى الله :

ثلاثة وعشرون عاماً تقريباً عمر الدعوة إلى الله .. قضى منها النبي ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً في بناء القلوب على الطهارة والصفاء والنقاء على أساس متين من الإيمان وعلى هدى من الله ونور يواجه الباطل بالحق.. ويدعو إلى وحدانية الله على بصيرة .. ويهدى الناس إلى الحق ويعلى قدر الإنسانية .

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) [يوسف].

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاثة عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبيانات ودلالات .

فلما قامت الحججة على المخالفين والمنكرين أعداء الدعوة إلى الدين وعظمة الدين ، شرع الله الهجرة وأمر سبحانه وتعالى بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب لمن خالف أمر الله وكذب به وعانده . ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَفَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) [البقرة].

ولكن شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد وقتال الأعداء وفي موضع آخر قال سبحانه وتعالى :

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥) [التوبة].

والذين كذبوا رسول الله ﷺ من أهل مكة شدد القرآن الكريم لهم التهديد الشديد والوعيد الأكيد ، ولقد رفع سبحانه العقوبة عن كثير منهم في الدنيا لبركة وجود رسول الله ﷺ نبي الرحمة فيهم .

روى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبدالرحمن بن ثابت عن ثوبان عن - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري .. ومن تشبه بقوم فهو منهم» (١)

وفي سبيل تمكين هذه العقيدة ونشر دعوة الإسلام تحمل رسول الله ﷺ الكثير من الأذى والعداء والعناد والاضطهاد ، ولاقى عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأوائل كل الأهوال من ألوان العذاب . ولكنه ﷺ تحمل في سبيل ذلك ما لم يقدر عليه تحمل أحد، وتحمل بالصبر وتحمل بالجهد والكلمة الطيبة .

٦ - صناديد الكفر والاضطهاد .

لقد فكر الوليد بن المغيرة في شأن النبي ﷺ والقرآن وهياً الكلام في نفسه ، ذلك لما نزل على رسول الله ﷺ قول الله تعالى :

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾﴾ [غافر].

فقال الوليد لأصحابه : والله لقد سمعت منه كلاماً «أى من رسول الله ﷺ» ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن - ليس بشعر، ولا بسحر، ولا كهانه وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر كان.

وكان الوليد بن المغيرة يعتر بهاله الكثير والممدود ، وبالأولاد من حوله يتمتع بهم ، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، ومكنه من صنوف المال والأرض والأثاث ورزقه الله الرزق الواسع ، وكانوا يسمونه ربحانة قريش، ولكنه كفر بأنعم الله وجحد بها ، وبدلها كفرأ ، وقابلها بالجحود والإفترأ عليها وجعلها من قول البشر ، وكان له دور رئيسي خاص في تكذيب دعوة النبي ﷺ ، وكان ممن يحسدون رسول الله ﷺ على إعطائه النبوة ، ولعله كان يطمع أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً .

قال الله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ ﴿١٤﴾ [المذثر].
وتولى الله أمره فقال :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَهْيِيدًا ١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥﴾﴾ [المذثر].

فبعد هذا الوصف الدقيق الجميل للوليد بحلاوة القرآن الذي سمعه على لسان رسول الله ﷺ وطلأوته - قال أبو جهل بن هشام لقومه دعوني أنا والله أكفيكم شأنه ! فانطلق حتى دخل عليه بيته ، وعبر له عن حزنه لما يجمعه القوم من مال للوليد ، وقد كانت قريش قد قالت «صبأ الوليد» أى ترك دينه ودخل في الإسلام ، والله لتصبأ قريش كلها، فأثار بن هشام كبرياء الوليد ، وكان يعتز بكبريائه ، فقال : لقد علمت قريش أنى أكثرهم مالاً

.. ولأن المسألة أصلاً ليس فيها عقيدة في قلوب هؤلاء المشركين فالرباط مفقود بين قلب الوليد ولسانه لا يتفقان ، فهذا الذي قال في القرآن إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ولا هو بشعر ولا بسحر وإن له حلاوة وعليه طلاوة ، سرعان ما انقلب على نفسه ، وعاد الوليد لعناده وكفره .

﴿ كَلَّا إِنَّكَ كَانْتَ لَابِتِنًا عِنْدَنَا ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر].

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ سَأَرْبِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ تَدَّرُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ

وَسَمَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهِمْ يُؤْتِرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر].

وكان جواب الله أن يدخله سقر الطابق السادس من جهنم كي يصلح حرها ، فهي لا تترك لحما ولا عرقا ولا عسبا ولا دما ولا جلدا إلا أحرقته لا تبقى منهم شيئا ، ثم يبدلهم الله غيرها ويعيدهم إلى جهنم مرة أخرى .

قال سبحانه وتعالى في سورة النساء : ﴿ كَمَا نَصَبْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء].

فلا تبقى سقر من فيها ولا تذر ، قال سبحانه :

﴿ سَأَصْلِبُهُ سَقْرًا ﴿٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقْرٌ ﴿٧﴾ لَا بَقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٨﴾ لَوَاسَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿١٠﴾ ﴾

[المدثر].

نار لا تبقى من فيها حيا ، ولا تذر من فيها ميتا ، ولكنها تحرقهم كلما جدد خلقهم ، وعلى جهنم تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها .

نقل ابن جرير عن مجاهد وابن عباس وقتادة والضحاك في صفة التفاسير : ﴿ لَوَاسَةٌ

لِلْبَشَرِ ﴿٦﴾ ﴾ [المدثر].

أى تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمتها وهولها كقوله تعالى :

﴿ وَبُرُزَّتْ أَلْبَابُ لِمَنْ يَرَى ﴿٦﴾ ﴾ [النازعات].

ولما نزلت هذه الآية قال أبو جهل « نكلتكم أمهاتكم » اسمع بن أبي كبشة « يعنى

محمدًا » يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم اللهم - « أى العدد الكثير الشجعان »

أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟

فقال أبو الأشد الجمحي وكان شديد البطش : وأنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم

اثنين - فنزلت الآية رداً عليهم ^(١) .

روى الإمام أحمد عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله ، قال : ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس .. « وسلا جزور قريب منه » فقالوا : من يأخذ هذه السلا فيلقيه على ظهره ؟ فقال عقبه بن أبي معيط : أنا ، فأخذه فألقاه على ظهره فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم عليك بهذا الملاء من قريش ، اللهم عليك بعقبه بن ربيعة ، اللهم عليك بشيبه بن ربيعة ، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام اللهم عليك بعقبه بن أبي معيط ، اللهم عليك بأبي بن خلف - أو أمية بن خلف .

قال عبد الله فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعا ، ثم سحبوا إلى القليب غير أبي أو أمية بن خلف فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع .

وفي بعض ألفاظ الصحيح أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض أى يميل هذا على هذا من شدة الضحك لعنهم الله ، وفيه أن فاطمة لما ألقته عنه أقبلت عليهم فستبهم وأنه ﷺ لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعو عليهم فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك وخافوا دعوته ، وأنه دعا على الملاء منهم جملة وعين في دعائه سبعة وقع في أكثر الروايات تسمية ستة منهم وهم عقبه وأخوه شيبه ابنا ربيعة والوليد بن عقبه وأبو جهل بن هشام وعقبه بن أبي معيط وأميه بن خلف ، قال ابن اسحق : ونسيت السابع . قلت وهو عباره بن الوليد وقع تسميته في صحيح البخاري ^(١) .

ويروى عبد الملك بن أبي سفيان الثقفى عن رجل من إراش قدم بابل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد ، فقال يامعشر قريش من رجل يؤديني ^(٢) علي أبي الحكم بن هشام ، فإنى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟ فقال أهل المجلس : ترى ذلك إلى رسول الله ﷺ « يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة » اذهب إليه فهو يعديك عليه أى يؤدبك عليه .

(١) البداية ٢ / ٥٤ .

(٢) (يؤديني) يساعديني علي استرداد حقي - السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧ . تحقيق طه عبدالرءوف

سعد ، ويوجد في البداية ٢ / ٥٥ بلفظ (بعديني) .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقام معه - فلما رأوه قام معه قالوا لرجل من معهم : اتبعه فانظر ما يصنع ؟ فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه ف ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج إليه وما في وجهه فطرة دم ، وقد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال لا تبرح حتى أعطيه الذي له . قال : فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشي : الحق لشأنك .

فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد أخذت الذي لي ، وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه فقال : أعط هذا الرجل حقه فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه .

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له : ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملكت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلني ^(١) .

وفي البخاري عن عروة بن الزبير ، سألت عمرو بن العاص فقلت : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبه بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿ أَنْفَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر] .

وروي البيهقي عن الحكم عن محمد بن اسحق ، حدثني يحيى بن عروة عن أبيه قال : قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيها كانت تظهره من عداوته ؟ فقال : لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ،

النصاب الذهبي في ميراث حضرة النبي ﷺ
 وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعاتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا منه على أمر عظيم أو كما
 قالوا . قال : فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر
 بهم طائفاً البيت فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ فمضى .. فلما
 مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفتها في وجهه فمضى .. فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها
 فقال : أستمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسى بيده لقد جئتكم بالذبيح^(١) .
 فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنا على رأسه طائر وقع .. إلخ .
 ٧ - تمكين العقيدة فوق أشواك الأذى والتعذيب :

هكذا أودى رسول الله ﷺ وما يؤذى أحد ، وخاف في الله وما يخاف أحد ، والقوم
 يلجأون إلى عمه أبوطالب فيقول ﷺ : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر
 في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته^(٢) .
 قال عمه أبو طالب : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمنك بشيء أبداً ،
 وعلمت قريش أن أبا طالب قد أبي خذلان رسول الله ﷺ فقدموا إليه بعماره بن الوليد بن
 المغيرة يعرضون عليه أن يأخذه ويتخذه ولداً ويسلم إليهم رسول الله ﷺ - فقال : هذا
 والله ما لا يكون أبداً^(٣) .

ففى سبيل تمكين العقيدة ونشر دعوة الإسلام وتنفيذ أمر الله في البلاغ عن دين الله
 الذى جاء لينقذ البشرية من الضياع الذى تعيش فيه ، ويهدى الناس إلى سبيل السلام ،
 تحمل عليه الصلاة والسلام الكثير من الأذى .. فكان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى
 الحق ولا يسمعون له بل ويسخرون ويستهزئون وقد استنكروا الآيات البيّنات التى لا
 شبهه ولا غموض فيها بل هى الحق الذى لا مرية فيه .

﴿ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ آيُنُنَا بَيْنَتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَآ جَاءَهُمْ هَذَا سَعْرٌ مِّمَّنْ ۗ ﴾ [الأحقاف] .
 وعلى القلة التى أمنت بالله ورسوله يستنكرون ويؤذون ويربصون بالباطل ليطورون به
 صفحة الحق المبين فأذاقوا المسلمين الذين اتبعوا الحق من العذاب ما يذل النفوس .
 قال ابن اسحق : ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت
 كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع
 والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوه منهم ليفتنوهم عن دينهم .

(١) (في الحلية بالذبيح وفي بن هشام بالذبيح) السيرة النبوية ١/ ٢٥٩ .

(٢) البداية ٢ / ٥٨ .

(٣) والأحداث بالسيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٤٠ .

أميه بن خلف يعذب بلال بن رباح ويطرحة على ظهره في بطحاء مكة إذا حميت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في هذا البلاء : أحد أحد.

وعمار بن ياسر أخرجه بنو مخزوم وأباه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام فإذا حميت الظهيرة عذبوهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة »^(١) فأما أمه فقتلها وهي تائبى إلا الإسلام ، وقد أكره عمار بن ياسر على التلطف بكلمة الكفر فنطق بها وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قوله تعالى :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتُمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ [النحل].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أخذته المشركون ، وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلايا وخبابا وسالما - فعذبوهم ، وربطت سمية بين بعيرين ، وجمى قبلها بحربه ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ، وهما أول قتيلين في الإسلام . وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً - فشكا ذلك للنبي ﷺ فقال له : كيف تجرد قلبك ؟ قال مطمئناً بالإيمان فقال رسول الله ﷺ « إن عادوا فعد »^(٢) .

وهذا أبو جهل يتوعد رسول الله ﷺ ويعاهد على أن يجلس له في الغد فإذا سجد في صلاته يضرب على رأسه بحجر ما يطيق حمله ، فلما كان الصباح أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو وكان عليه الصلاة والسلام بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه مرعوباً قد يبست يده على حجره حتى قذف الحجر من يده - وقامت إليه رجال قريش فقالوا له مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني^(٣) .

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٧٩ .

(٢) فقه السنة ٢/ ٤٥٠ .

(٣) السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ .

قال ابن اسحاق فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل لو دنا لأخذه .
 ألقوا التراب على رسول الله ﷺ وطرحوا فوقه القاذورات فتبكي فاطمة حينما ترى
 هذا الإيذاء بأبيها فيقول لها النبي ﷺ : يابنيه لا تظني أن حفنة من التراب تطفىء نور القمر
 ولا أن ساعة حزن من الزمان يحكم به على الزمان كله - يابنيه لا تبكى فإن الله مانع
 أبالك^(١) .

ولم تكتف الفتنة الظالمة الكافرة عن الإيذاء والاضطهاد بها لا يطيقه احتمال الإنسان
 مهما كان جلده وصبره وقوته ، ولم تكتف بذلك بل منعت منهم الرحمة - لا تأخذهم شفقة
 ولا رحمة .

٨ - حصار المؤمنين وعناد المشركين .

حاصروا المسلمين في شعب من شعاب جبال مكة العالية والصعبة القاسية ثلاث
 سنوات لا يجدون خلاها ما يأكلون فقد منعوا عنهم الزاد ، ولولا فضل الله عليهم
 ورحمته لحفظ دينه لهلكوا ، ولكنهم صبروا وتحملوا الحصار والأذى في النفس والأهل
 والمال ، لم يستسلموا للأمر الواقع أو الرضا بالظلم والأذى ، ولم يرتد منهم أحد عن دينه ،
 وكشف الله عنهم غمة الحصار ورفع عنهم الأذى بقدرته سبحانه وتعالى .

يقول ابن هشام في السيرة النبوية : قال ابن اسحق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول
 الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبي طالب
 متخياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه - فيصليان الصلوات فيها فإذا
 أمسيا رجعا - فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا - ثم أن أبا طالب عثر عليها يوماً وهما
 يصليان فقال لرسول الله ﷺ : يابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى ياعم
 ! هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ بعثنى الله به
 رسولاً إلى العباد وأنت أى عم ، أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من
 أجبني إليه وأعانني عليه أو كما قال : فقال أبو طالب أى ابن أخى : إني لا أستطيع أن
 أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك « أى لا يوصل إليك » بشئ
 تكرهه ما بقيت^(٢) .

(١) البخاري / الجزء الأول ٤١٦ باب الوضوء - نقل عن وقفات تربوية عن السيرة النبوية / ٧٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢٩ .

ولم يياس رسول الله ﷺ ولا أتباعه ظلوا يجاهدون، ينادي عليه الصلاة والسلام في القبائل: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ودعوا هذه الأوثان والأنداد، من يؤوني؟ من ينصري؟ من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي؟ هذا ومن ورائه عمه أبو لهب يقول: «أيها الناس - لا تصدقوه فإنها ينهاكم عن عبادة اللات والعزى وما وجدتم عليه آباءكم». أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد لجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال: رأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسِككم؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب أهذا جعنتا؟ تبالك فأنزل الله:

﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۚ (٥)﴾ [المسد].

وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تبالك سائر اليوم أهذا جعنتا؟ وأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ وإسمه عبدالعزيز بن عبدالمطلب وكنيته أبو عتبة وإنما سمي بألبه لإشراق وجهه، وأمراته أم جميل وهي أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان وكانت في عون زوجها في هذه الحملة الدائبة الظالمة، وقد اتخذ أبو لهب موقفه العدائي من النبي ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة وكان كثير الأذية له عليه الصلاة والسلام وكثير البغض والإزدراء والتقصص له ولدينه - كلما بلغ النبي القوم ودعاهم إلى وحدانية الله كان وراءه يقول إنه صابغ كاذب يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أفيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه.

وذكر ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيثار قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدى نفسي يوم القيامة من العذاب بهالي وولدي فأنزل الله تعالى:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (١) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٢)﴾ [المسد].

«أي ذات شرر وهب وإحراق شديد» أما زوجته التي كانت عوناً له على كفره وجحوده وعناده تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم «حمالة الشر والسعي والأذى والوقية» تحمل الحطب وتلقيه في طريق النبي ﷺ لإيذائه فعذابها في النار أن تغل بحبل من مسد، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۚ (٥)﴾ [المسد].

قال ابن اسحق : فذكر لي أن أم جميل حاملة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وزوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر من حجارة « أي بمقدار ملء الكف » فلما وقفت عليها أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر .

فقلت يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله وإني لشاعره ! ثم قالت : مذمعا عصينا وأمره أينا .. ثم انصرفت فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال ما رأنتي لقد أخذ الله يبصرها عنى .
وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنه سيحال بيني وبينها » فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، وفي الحديث قالت لأبي بكر : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : ما رأتك ؟ قال : لا ، مازال ملك يسترني حتى ولت ^(١) .

هكذا بلغ الغيظ والأذى والوقعة والفتنة لرسول الله ﷺ من أقرب الناس إليه عمه عبدالعزيز بن عبدالمطلب والمسمى أبوهب ليتلى فيه قرآناً إلى يوم القيامة بين الله فيه للخلائق مصيره إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .. لقد استكبرت قريش عن الإيمان وعتوا على الله وتركوا أمره عيانا واتخذوا القرآن هزواً وقال قائلهم :

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣﴾ [فُصِّلَتْ] .

اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ يوماً فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعه موه ؟ وقام ابن مسعود ؓ عند المقام ليكون أول من جهر بالقرآن في مكة وهو يتلوه بصوته الرائع .

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن] .

فجعلوا يضربون في وجهه - وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ وهو يقول ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، وتلك بعد ما أسمعهم ما يكرهون ^(٢) .

وفي السيرة أيضاً أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق كانوا يخرجون بالليل لا يعلم أحدهم بالآخر ليستمعوا للقرآن حتى إذا طلع الفجر تفرقوا

(١) ابن كثير ٤/ ٥٦٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٥ .

فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم انصرفوا - حتى إذا كانت الليلة الثانية والثالثة ، كل من وراء الآخر يتفرقوا عند الفجر فيجمعهم الطريق .. ولكنهم تعنتوا وعلى قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقر - قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١٥﴾ ﴾

[الإسراء].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن أبا ذر لما دخل على رسول الله ﷺ ، قال له النبي ﷺ : إزجع لى قومك حتى يأتك أمرى . فقال : والذي نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وثار القوم وضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام ؟ « يعنى عليهم » فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لثلاثها وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه ^(١) .

لقد كذب سفهاء قريش رسول الله ﷺ وأذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر].

وأقسم الله تعالى بالذى يخطون ويكتبون ما أنت يا محمد بنعمة ربك بمجنون كما زعم المشركون وإن لك ثواباً من الله عظيماً على صبرك وتحمل أذاهم ، لقد جتتهم بالهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾

[القلم].

أي غير مقطوع ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [هود].

- الأجر العظيم والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يببىد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم - كقوله تعالى فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين].

(١) أخرجه البخاري فى كتاب مناقب الأنصار باب إسلام أبي ذر الغفاري . الحديث ٣٨٦١ . وأخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة (الحديث ١٣٢) .

وأثنى الله على رسوله ﷺ بالأدب العظيم الذى أدبه به سبحانه وتعالى ، وهو أدب القرآن الكريم وأدب هذا الدين العظيم «وسترى يا محمد ويرى المشركون بأبيكم المجنون» وربكم يعلم الذى أفتن عن الحق وضل عن طريق الهدى والصراط المستقيم .

﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ ۗ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿٧﴾﴾ [القلم] .

بل الذين جحدوا وحدانية الله يكذبون بآياته وتنزيله والله أعلم بما تكتمه صدور هؤلاء المشركين من العناد والتكذيب والإستهزاء برسوله الكريم .. وأمر الله رسوله ﷺ أن ينذرهم بالعذاب الأليم إلا من تاب وأمن ، قال سبحانه .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَلَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق] .

وليس هؤلاء بأقوى من الجبارين السابقين وأمثالهم على مر الأجيال والقرون - كانوا أكثر عددا وأشد قوة وأثارا فى الأرض فلم ترد عنهم قوتهم وجبروتهم ذرة من بأس الله .
﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَتْ عَنْهُمْ مَاءَ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر] .

ويدعو النبي ﷺ ربه « اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك - عمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام «أبى جهل» - فكان أحبها إلى الله تعالى عمر بن الخطاب^(١) - وكان عمر جسيما قوى الجسم ، يشب على فرسه فكانها خلق على ظهره .

يقول بن مسعود ؓ :

كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمامته رحمة .. وكان المسلمون فى ضعف قبل إسلام عمر ، فلما أسلم قويت شوكتهم وأعزهم الله بإسلام عمر ... وقال بعض الصحابة: مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر ، وفى عهده تم فتح العراق والشام ومصر وذلك دولة الفرس «إيران حالياً» .

كان عمر من قبيلة عدى بن كعب وهى قبيلة عدنانية من قريش ولم يكن لها مناصب فى مكة ، ولكنها كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف ، وكان الخطاب شريفاً فى قومه ، ولم

(١) أخرجه احمد والترمذي عن ابن عمر .

يكن ذا مال ولا خدم ، وكان فظاً غليظاً ، وأمه حشمة بنت هاشم بن المغيرة .. اشتغل بالرعي في طفولته ولما كبر اشتغل بالتجارة .

وعندما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله ثارت نفس عمر وأراد التخلص من محمد ودعوته ونسى أن الله في الخلق حكمه ، وأن حكمته قضت أن يكون عمر هو الفاروق الذي يتحدث الناس بإسمه .. ولقد علم أن أخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما ، فأسرع إليهما ليطش بهما ، وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد ، فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته ضربها حتى سال منها الدم ، وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة رق قلبه وحدث فيه انفعال بالرحمة فخرج العناد من قلبه ، فطلب صحيفة القرآن التي كانا يقرآن فيها .. وقرأ من أول سورة طه .

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ [طه] .

ثم قال ... ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه - ليحقق الله لرسوله ﷺ إجابة دعوته بأن يعز الإسلام بأحد العمرين . وكان عمر بن الخطاب .

ومن ثم فهو أول من دون الدواوين ، ونظم ديوان الجند ، ومصر الأمصار ، وأول من استعمل التاريخ الهجرى بداية من هجرة رسول الله ﷺ ، وحضر الغزوات كلها مع النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم لما قبض أعان أبا بكر على توليه الخلافة خشية تفرق المسلمين ، ثم كان بعد ذلك هو الخليفة ، ثم دفن مع رسول الله ﷺ - أمر الله وحكمته التي يقضى بها بين الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

روى ابن حجر ما أخرجه أحمد عن شريح بن عبيد قال : قال عمر ؓ :

خرجت أنعرض لرسول الله ﷺ ، فوجدته سبقني إلى المسجد - تقدمت خلفه - فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن فقلت هذا والله شاعر فقراً .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا نُنَؤُمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة] فقلت كاهن فقراً .

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحاقة] .

حتى حسم السورة فقال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع .

ولما علمت قريش بإسلامه لم تصبهم كآبة مثلها - قال عمر : سباني رسول الله ﷺ الفاروق يؤمئذ - وأصبحت سيرة عمر تدرس في جامعات العالم الإسلامية وغير الإسلامية .

.. وتوغل الإسلام في القلوب .

روى الإمام أحمد عن أنس ؓ أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويتناوله نعليه .. فمرض .. فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد على رأسه ، فقال له النبي ﷺ : يا فلان قل لا إله إلا الله .. فنظر إلى أبيه .. فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه .. فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : الحمد لله الذي أخرج به بي من النار^(١) .

وفي صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ذلك كله والإيمان يتغلغل في قلوب المؤمنين المصدقين لرسول الله ﷺ والذين اتبعوه ولم تحرك فيهم هذه الألوان المتعددة من الأذى والإهانات والتعذيب ساكتنا ، ولم تزدهم إلا إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . ويمضى أبو بكر الصديق ؓ وأرضاه : ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الرَّحْمٰنِ ﴿٢٠﴾ وَسَلْوًا لِلنَّاسِ ﴿٢١﴾﴾ [الليل] .

يمضي في شراء العبيد بهاله ، ويعتقهم في سبيل الله ليخلصهم من عذاب المشركين ، ومنهم بلال ؓ ، الذى قال فيه عمر : سيدنا أعتق سيدنا ، السيد الأول هو أبو بكر والسيد الثاني بلال الحبشي الأسود وكان مملوكاً لبني جمح - فلما دخل الإسلام صار من أسياده . هؤلاء هم سلفنا الذين دافعوا عن الإسلام فأى فتنة أصابت المسلمين اليوم فجعلتهم يتباطئون عن دينهم وطاعة ربهم ويسلمون أمرهم وولائهم لمن يقتلونهم كل صباح ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ؟ .. بيننا المدن تقصف ! والأرواح تزحق ! والولاء صار لعدو الله !!! وكان الجاهلية الطالحة عادت بالوليد بن المغيرة وعتبة وشبيهه وأبو جهل في صورة أخرى من خارج أمة الإسلام ليتحكموا فيها ويستنفذون خيرها وثرواتها ويستهزءون بدينها ورسولها يطمعون في كل شئ ، ويأخذون كل شئ ، ويستهلكون ثروات أمتنا لحسابهم ، وهم يمزقون أصول ديننا وعقيدتنا ويهينون اسم نبينا على صفحات مجلاتهم بالكاريكاتير ويدنسون المصحف الشريف بالأقدام «لعنهم الله» ، وعيانا كما تحدثت عنه الفضائيات على شاشات التلفاز ، ثم تعود الرسوم الساخرة في حق النبي ﷺ لتنتشرها صحف الدنهارك بحجة حرية التعبير .. ومرعان ما تشاركها السويد والنرويج وألمانيا هذا الحق في حرية التعبير في الصحافة ، وتمتد الإساءة من كوبنهاجن إلى باريس لتنتشرها فرنسا في إحدى صحفها على اعتبار أن ذلك لا يمس أى شبه عنصرية أو

(١) رواه البخارى في الصحيح (١/٣٥٥) .

يحقر شأن الآخرين ، وتثور الجاليات المسلمة ومنها أكثر من مائتي ألف في الدنبارك إضافة إلى علماء المسلمين في كل أنحاء العالم يطالبون بمقاطعة المنتجات الدنباركية ، ويسألون الصحيفة الإعتذار للمسلمين - والأمة التي تغار على دينها لم يعد يكفها إستنكارهم على كل هذه الأحداث التي تهن دينهم ورسوله - فإلى متى يستمر هذا الإستهزاء ويفقد هؤلاء الذين يستكبرون على دين الله إحترامهم للأديان والمقدسات ؟ وإحترامهم لمشاعر المسلمين ؟ بينما جميعهم صامتون أمام عنف الصهيونية وعدوانها على أمة الإسلام «ألا من صحوة لهذه الأمة لتحمي دينها وتدافع عن رسولها وتلزم الدنيا بأكملها بإحترام كتاب الله فيها؟» .

٩ - بطش الجبارين ورب المستضعفين ﷺ :

وليس فيهم من هو عزيز على سقر التي لا تبقى ولا تذر أحداً من الكافرين والمعاندين لدين الله ، ولعل الله سبحانه وتعالى أن يدفع عن دينه شر الكافرين .. والله أشد قوة وبأساً وانتقاماً وأعظم سلطاناً وأقدر بأساً على ما يريد وأشد عقوبة وتنكيلاً .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَٰ بِأَسِ الْذِينَ كَفَرُوا ۗ وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ

تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ [النساء] .

ومن ثم فإن المستهزين بدين الله السابقين عمادوا في الشر واكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قهقهة ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل ، فغمز جبريل لإصبعه فوق مقل الظفر في أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا، فلم يستطيع أحد أن يدنو منهم ^(١) .
وعند الطبراني أن هؤلاء المستهزين :

الوليد بن المغيرة « فأشار جبريل إلى عرق في باطن ذراعه فقطعها » .

...والأسود بن عبد يغوث « خرجت في رأسه قروح فمات منها والأسود بن أبي زمعه

من بني أسد » وقد عمى » .

والحارث بن عيطل السهمي « أخذه الماء الأصفر في بطنه حتى مات » .

(١) حياة الصحابة ٣/ ٥٣٦ .

(٢) حياة الصحابة ٣/ ٥٣٦ .

والعاصبي بن وائل السهمي « دخلت في رجله شوكة امتلأت منها فمات »^(١٢).

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ولا يلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوا رسول الله ﷺ عن آيات الله : ﴿وَدَّوۡا۟ لَوۡ يُؤۡذَنُوۡنَ فَيُدۡهِنُوۡكَ ۗ﴾ [القلم].

وأبلغه الله سبحانه وتعالى أنه كافيه إياهم وحافظه ﷺ منهم :

﴿يٰۤاَيُّهَا الرّٰسُوۡلُ بَلِّغۡ مَاۤ اُنۡزِلَ اِلَيْكَ مِنۡ رَّبِّكَ ۚ وَاِنۡ لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسٰلَتَهُۥ وَاَللّٰهُ يَتَعَسَّبُ عَلٰى النَّاسِ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهۡدِى الْقَوۡمَ الْكٰفِرِيۡنَ ۗ﴾ [المائدة].

ثم أنزل الله تعالى عليه :

﴿ اِنَّا كَفَيۡنَاكَ الْمُسۡتَهۡزِئِيۡنَ ﴿٥٧﴾ الَّذِيۡنَ يَجۡعَلُوۡنَ مَعَ اللّٰهِ اِلٰهًاۤ اٰخَرَ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُوۡنَ ﴿٥٨﴾ ﴾

[الحجرا].

ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم وأن يمنعه عن أرادوا قتله .

وأجمع المشركون أمرهم ، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق .. لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ ... وتتوال الأحداث وتمر الأيام بثقلها ومتاعبها وأبوابها الواسعة والطويلة في الجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع الباطل الذي كلما اقتربوا من نهايته صارت له أنياب جديدة عاقت وأعاققت الدعوة إلى الله في مكة فقد أعلنت قريش الحرب على رسول الله ولم يعد ، أو لم يكن يوماً في قلوب مشركيها شفقة ولا رحمة .

ورسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً منادياً بأمر الله تعالى لا يتقى فيه أحداً من الناس ، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به « يهزمونه ويستهزءون به ويخاضمونهم » وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم من سمى لنا ومنهم من نزل القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.. فذكر ابن إسحاق منهم أبا لهب ونزول السورة فيه ، وذكر

أمية بن خلف ونزول قوله تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة].

« السورة بكاملها فيه » والعاص بن وائل ونزول قوله تعالى :

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يُولَدْنَا﴾ [مريم].

وأبا جهل بن هشام وقوله للنبي ﷺ : لتركن سب أهتنا أو لنسب إهلك ونزول قول الله تعالى فيه :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آفَةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

والنضر بن الحارث بن كلده بن علقمه - ومنهم من يقول علقمه بن كلده - قال السهيلي وجلوسه بعد النبي ﷺ حيث يتلو القرآن في مجالسه ويدعو إلى الله، فإذا ما قام رسول الله ﷺ جلس النضر يتلو عليهم شيئاً من أخبار رستم واسفنديار وما جرى بينهما من الحروب في زمن الفرس، ثم يقول والله ما محمد بأحسن مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتسبها كما اكتسبها فأنزل الله تعالى :

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان].

إلى آخر أحداث هذه المرحلة القاسية التي تناولت السيرة النبوية فيها العداء المتوحش والحرب بين القلة المؤمنة والتي تبعت رسول الله ﷺ وبين عمالقة الكفر والشرك... وإذا بعمر بن الخطاب قوة قريش في حربها مع محمد ﷺ يعلن إسلامه ليأتي بعد ذلك ما سطره الله في كتابه وأراده في وقته أن يكون خليفة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ ويدفن مع النبي وصاحبه إلى أن يبعث الله الناس جميعاً.

ونكتفي بتلك اللقطات الخاطفة عن بعض المتاعب والآلام التي لاقاها المسلمون في بداية الدعوة حتى لا نذهب بعيداً عن مضمون هذا الكتاب . وتوالي الأحداث وتموت خديجة رضي الله عنها ويموت أبي طالب كافل النبي ﷺ وازداد موقف قريش العنيد أكثر عناداً وأكثر اضطهاداً ، وتجمدت الدعوة في مكة بموقف قريش منها وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار في ارتقاب المعركة بين رسول الله ﷺ وعشيرته الأقربين وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو بن هشام وأبو

سفيان بن حرب وغيرهم .

وكان رسول الله ﷺ قد اتجه إلى الطائف في محاولة أخرى يجد فيها قاعدة آمنة للدعوة فذهب يدعو ثقيفاً ، ولكن المحاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله ﷺ أسوأ استقبال فيردونه أعنف رد ، ويغرون به صبيانهم وسفهاءهم يقذفونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ويلجئونه إلى شجرة يستروح ظلها ويدعو ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني .. إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »^(١) .

ثلاثة عشر عاماً في مكة تحت ضغط الاضطهاد والأذى وعناد المشركين وكفرهم واجتماعهم وتآمرهم على إيقاع الشر والأذى برسول الله ﷺ وأصحابه والقلة التي استكروا عليها إلتباع النبي عليه الصلاة والسلام وأذاقوهم أشد أنواع العذاب . وهم أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من أحب البلاد إليه ، وقد ذكر أنه لما تنزل قول الحق تبارك وتعالى في فرعون :

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝١٣﴾ [الإسراء] .

كان في هذا بشارة لرسول الله ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية ونزلت قبل الهجرة .. وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْسُتُونَكَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٣﴾

﴿ ١٣﴾ سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝١٣﴾ [الإسراء] .

١٠ - خاتمة الصراع بين الوثنية الوقحة والحنيفية السمحة .

وضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعاً كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق لا تملك لها دفعا ولا تطيق عليها صبراً .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُواكَ أَوْ يُقْتُلُواكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾ [الأنفال].

وكانت خاتمة الصراع بين جابرة الوثنية وبين الحنيفية السمحة أن يدبروا مؤامرة لاغتيال محمد ﷺ ، فأتمرت به وقررت أن تتخلص منه ، فأطلعته الله على ما أتمرت وأوحى سبحانه إليه بالهجرة انتقالاً بالعقيدة من وطن كثر فيه الباغي وقل فيه الناصر إلى وطن آخر تأمن فيه دعوة الإسلام على نفسها ، وانتقلت الدعوة بالهجرة من مكة إلى المدينة بأمر الله تعالى ، واختار رسول الله ﷺ الرفيق والصدیق أبو بكر الصدیق .. وخرج النبي ﷺ من أحب المواطن إليه وإلى الله ، ولولا أن أهله أخرجوه منها ما خرج ، والرسول بشر فقد أصابه وأصحابه الأسى والحزن والألم حين خرجوا من أحب بلاد الله إلى الله ورسوله تاركين الأهل والمال وكل ما جمعوا في دنياهم لا يعلمون ما يجأ لهم .

ومثال من الأمثلة لصهيب الرومي والقوم يهدونه ... أتيتنا صعلوكاً فكثر مالك ثم تريد أن تخرج بك نفسك ، وهو يشتري الهجرة ببذل ماله وعذاب نفسه وتلك معادلة صعبة عند الناس ، ولكنها يسيرة عنده ومستعذبه إستحق بها قول النبي ﷺ : ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع يا صهيب .

وما من حادث ضاق به الناس ذرعاً إلا وأعقبه بعد حين طال أو قصر الخير والفرج ، ، فتلك هي سنة الحياة ، فمع الشدة التي كان فيها رسول الله ﷺ من جهاد هؤلاء المشركين رجاءً وفرجاً بأن يظفره الله بهم حتى ينقادوا للحق طوعاً أو كرهاً قال تعالى :

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].

وكان رسول الله ﷺ علي بينة مما يبیت كفار قريش عند بداية هجرته ﷺ بما كان يأتيه من ذلك الغلام الشاب عبدالله بن أبي بكر الذي كان يتقصى الأحاديث ويستشف المكائد ويستخلص الأسرار ثم يمضي بها إلى رسول الله ﷺ وهو الذي لو شاء الله لأطلعته وحياً على الشاردة والواردة ويستغنى عن مشقات البحث والسعي ، ولكنها سنة الله ومراده ان يستوفي الإنسان وسعه .

وهذا هو عبدالله بن أريقط الرجل الصادق في وعده الناهض بعهده وتلك أخلاق العرب ، والناس معادن - أوفى ابن أريقط وجاء بالراحتين استلمهما من أبي بكر قبل الهجرة ليحضر بها في الزمان والمكان المتفق عليهما .

صورة مشرفة للوفاء بالوعد وصورة أعظم تشريفاً لهذا الصدیق أبوبكر ﷺ ، الذي

رافق النبي ﷺ وصدقه في كل ما جاء به من عند الله .

واشترط رسول الله ﷺ أن يؤدي ثمن راحلته فيأخذها شراء لا عطاء ، وهي أخلاق التعامل الفضل ، فسن بذلك عليه الصلاة والسلام أنه لا حرج بين اثنين في تأدية الحقوق المتبادلة دون أن يؤثر ذلك على عمق المودة أو يחדش قدسية الأخوة في الله حتى ولو كان أحد الطرفين رسول الله ﷺ والأخر صفيه وأقرب صحابته والمقدر في عالم الغيب أنه خليفته من بعده «أبو بكر الصديق ؓ» ، وذلك مبدأ من مبادئ [الدين المعاملة] ... وأى معاملة تليق بتعامل الناس أفضل من معاملة الإسلام وتشريع الإسلام ؟

الإسلام الذي جعل رسول الله ﷺ يتخذ خبيره من غير دينه دليلاً لطريقهم فكان عبدالله بن أريقط الليثي هو الدليل ولم يكن مسلماً ولكنه كان على خلق وصدق ومعرفة وعلم فأخذ رسول الله ﷺ خبيراً وهو على دين كفار قريش ليكون الدليل لخبرته بمسالك الطريق - فسن بذلك رسول الله ﷺ لأئمة الإفادة من الخبراء الأجانب شريطة التأكد من سلامة أخلاقهم وعمق معرفتهم وحيادهم في عملهم .

هذا ولم يخط رسول الله ﷺ خطوة واحدة في طريق هجرته إلا بعد أن تأكد تماماً إلى أين سيضع قدميه ، وأخذ العهود والمواثيق أن ينصره سادة المدينة وزعمائها يجتمعون على حمايته كما يحمون أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، ذلك لتتعلم الإجتهد والأخذ بالأسباب وترك التوفيق لله سبحانه وتعالى ... وكان الإسلام قد دخل بيوت يثرب بعد بيعة العقبة ، وفي إنتظار قدوم رسول الله ﷺ .

١١ - أهل يثرب في زينة ورسول الله في المدينة .

واستقبل أهل يثرب رسول الله ﷺ أعظم استقبال في مهرجان عظيم يضربن الجوارى فيه على الدفوف وينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

وكانت الهجرة بداية لمرحلة جديدة انتقل الإسلام فيها من دين تحمله جماعة مستضعفة إلى دين تؤيده عصابة قوية ،، ووصل الإسلام بإذن الله مشارق الأرض ومغاربها وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة المشركين والذين كذبوا برسالة محمد ﷺ في مكة وغيرها هي السفلى .

قال ابن اسحق : لما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً إلى الله يريد المدينة قال : الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللتى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وإليك ربى فحببى ، وإلى الناس فلا تكلنى ، رب المستضعفين وأنت ربى . أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الأولين والآخرين ، وأعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نعمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك لك العقبى عند خير ما استطعت - لا حول ولا قوة إلا بك^(١) .

... وهكذا كانت المواجهة بين الحق والباطل استمرت ثلاثة عشر عاماً بالصبر والجهاد والكلمة واحتمال الأذى ، ومن الفريق الآخر عناد وعداء لا يكف عن الإيذاء والاضطهاد ، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وعذبه وعاداه - فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية .

١ - وفى المدينة النبوية تأخى المهاجرون والأنصار وحدثت الألفة بينهم وجعل الله لنبيه ﷺ أنصاراً وأعواناً .

٢ - ومن المدينة المنورة أرسلت الوفود تنادى بالسلام إلى الإسلام .

٣ - وفى المدينة المنورة وقعت المفاوضات والمعاهدات والمحادثات بين رسول الله ﷺ وبين اليهود الذين نقضوا العهد فدارت عليهم دائرة السوء وتطهرت متهم أرض يثرب وأعز الله المسلمين .

٤ - ثم جاء أهل اليمن منهم المؤذنون ومنهم القارئون رقيقة أفئدتهم لينة طباعهم وعظيمة خشيتهم ، نفس الله بهم الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم وكثرت أعوانه وأنصاره .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : أتاكم أهل اليمن هم أصفى قلوباً وأرق أفئدة - الفقه بيان والحكمة بيان .

٥ - ومن المدينة المنورة انطلقت جحافل جيوش المسلمين تدعوا إلى الحق وترفع لواء الإيمان - ومنح الله رسوله ﷺ أكتاف المشركين يوم بدر التى فرق الله بها بين الحق والباطل والهدى والغى - ونصره عليهم ، وخذلهم وقتل صناديدهم .

٦ - ثم كان بعد ذلك فتح مكة التي أخرج منها رسول الله ﷺ ، وهى البلد الحرام ، وانقذه الله تعالى مما كان فيها من الكفر والشرك - البلد التي أخرجته وآذته وحاربته ووقفت في طريق دعوته بالعناد والاضطهاد .

وأورث الله رسوله مكة المكرمة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً .

١٢ - ما بين بدر ومكة نصر وخير وبركة .

فكان النصر في غزوة بدر تأسيساً لبناء الدولة الإسلامية ، وكان فتح مكة استكمالاً للبناء وحماية لصرح العقيدة الإسلامية .

... في بدر قضى على رءوس الشرك ، وقتل أمية بن خلف رأس الكفر والذي كان يعذب بلالاً بمكة على الإسلام وفي بعض الروايات أن بلالا هو الذي قتله ، وقتل أبى جهل وقيل في بعض الروايات عن ابن مسعود قال : كان يقول لى إرتقيت صعباً يارويعى الغنم ، قال : ثم إحترزت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : هذا رأس عدو الله - فقال الله الذى لا إله غيره ؟ وكانت يمين رسول الله ﷺ - فقلت نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدي النبي ﷺ فحمد الله هكذا .

ذكر ابن اسحق رحمه الله تعالى : وقتل النضر بن الحارث وقتله على بن أبى طالب ، ثم قتل عقبة بن أبى معيط لعنهم الله - وحين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة - قال لرسول الله ﷺ : فمن للصبية يا محمد ؟ - قال : « النار » وقد قيل أن الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأملح أخو بنى عمرو بن عوف .

قال عقبة : أتقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال نعم ! أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستذران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاه فألقاها على رأسى وأنا ساجد - فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي - قال بن هشام : ويقال بل قتل عقبة على بن أبى طالب « فيما ذكره الزهرى وغيره من أهل العلم » إلى آخر أحداث يوم بدر التي إشتهر أن الأسرى يومها كانوا سبعين ، والقتلى من المشركين سبعين ، وأقوال أخرى - كلها تأتى بنتيجة واحدة هى نصر الله المبين لعبادة المؤمنين^(١) .

فقضى على زؤوس الشرك وعباد الأصنام والمستهزئين في مكة برسول الله ﷺ ، المكذبين لرسالته ودينه .

ومن عدل الله أن حظ الطغيان دائماً خاسر وأنه على الباغي تدور الدوائر .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء] .

وفي فتح مكة قضى على الأصنام التي كان يعبدها هؤلاء الطواغيت، وأعلنت الحرب الشعواء على معبودات المشركين يحطمها الفاتحون .. ويقف رسول الله ﷺ أمام الكعبة المشرفة بعد الفتح وعليها ويجوارها ستون وثلاثمائة صنم تعبد من دون الله ، فينكثها على رؤوسها ، ويكبتها على وجوهها ويحطمها ، ويشير إليها بيده الشريفة وهو يتلو قول الحق تبارك وتعالى^(١) :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء]

ويرسل ﷺ رسله وسراياه ومبعوثيه إلى القبائل لتستأصل البقية الباقية من الأصنام ، فقد عبدت العرب تماثيل وأنصاب مختلفة الألوان والأشكال .
كان « هبل » وهو أعظم الأصنام المنصوبة بجوف مكة من عقيق أحمر على صورة إنسان وكانت « اللات » صخرة مربعة الشكل منصوبة بالطائف .
وكانت « ذو الخليفة » بمروة «حجارة صلب تعرف بالصوان بيضاء ومنقوشة عليها كهيئة التاج» .

وكان « الصليب » هو الآخر وثناً من الأوثان التي قدسها النصارى .

فكان الشرك عقيدة سائدة قبل عصر النبي ﷺ .. وذهب رسل رسول الله .. هذا يهدم اللات وذلك يستأصل العزى - إلى آخر الأصنام التي عبدت من دون الله ، واندرح الشرك الذي طال الإنتظار لاندحاره .

وحقق الله وعده لرسوله ﷺ ودخل مكة على ناقته خاشعاً متواضعاً في عظمة العفو عند المقدرة ليعطى درساً لأمتة في أعظم النفوس التي تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام مها كان هؤلاء الذين ظلموه وغذبه هو وأصحابه وهموا بقتله وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهلهم وأموالهم ولم ينفكوا عن محاربتة والكيد له بعد أن ترك لهم مكة .

... يدخل عليه الصلاة والسلام فاتحاً لمكة المكرمة قائلاً للقرشيين : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيزا - أخ كريم وابن أخ كريم .. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء^(٢) « هذه ساحة الإسلام وعفو الإسلام الذي يتهمه الغرب الآن بالإرهاب وهو الذي يجارب الإرهاب» .

(١) ورواه البخاري ومسلم (ابن كثير ٣ / ٥٩) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٤١ .

وكما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وكنوزهم ، فتحت مكة وفتحت اليمن والمدائن والقصور والحصون وسائر البلاد ، ودانت لرسول الله ﷺ جزيرة العرب بكاملها ... وأورث الله المسلمين والمؤمنين ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ، بعد أن منح رسوله ﷺ رقاب المتجبرين بقتل رجاله مشركيهم ، وبغضه هو ﷺ عن أسراهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء ... يا لساحة الإسلام ، وعفو الإسلام ، وحلاوة الإسلام » .

بذلك أعاد رسول الله ﷺ لعقيدة التوحيد صفاءها ونقاءها وطهرها من الشرك والوثنية ... ووضع القواعد والأساس الذي عليه تكون صلة الإنسان بربه وصلته بالناس ... ووضع دستوراً لمجتمع تنمو فيه القيم وتعلو فيه المبادئ الصحيحة المستقيمة والأخلاق العالية الرفيعة وكل معاني الفضائل الكريمة والأعمال الصالحة الجليلة ... واسترد للبشر كرامتهم وإنسانيتهم ، فصار المسلمون الأولون سادة العالم وأقاموا للمسلمين دولة وسلطاناً وحكومة وقيادة، وجعلت لهم قوة وكياناً ، وأخضعوا لحكمهم فارس والروم ، وامتد ظلهم إلى بلاد السند شرقاً وإلى أرمينيا والروس شمالاً ، ودخل في عدلهم بلاد الشام ومصر وبرقه وطرابلس وبقية أفريقيا .. وتلك مشاهد تاريخية باقية بصماتها إلى الأبد ولا يملك أحد في هذا العالم إنكارها أو تجاهلها.

وفي عهد بنى أمية امتد سلطانهم ودخلوا بلاد السند والهند ، وحدود الصين شرقاً وبلاد الأندلس بغرب أوروبا ... وقد غزا المسلمون الهند في سنة أربع وأربعين في إمارة معاوية ابن أبي سفيان رضى الله عنه وكان نواب بنى أمية يقاتلون الأتراك في أقصى بلاد السند والصين وقهروا ملكهم القائل الأعظم ومزقوا عساكره وأستحذوا على أمواله وحواصله .

وقد حذر رسول الله ﷺ المسلمين من أيامهم القادمة بعده حين تتحقق أشراط الساعة وتقوم الفتن بين الناس ، وعلمنا أن نتنبه جيداً لكل ما حذرنا منه رسول الله ﷺ وأن نستقيم على سنته في كل حياتنا أسوة بهؤلاء الذين نشروا راية الإسلام في كل ربوع العالم وحتى يظل هذا الدين هو القيم إلى يوم القيامة ، وإن رسول الله ﷺ لم يحدد مدة معينة لقيام الساعة ولكنه ﷺ ذكر أشراطها وأماراتها وعلاماتها - ومن هذه الأشراط يرفع العلم

ويظهر الجهل ويفشو الزنا وتشرب الخمر ويذهب الرجال وتبقى النساء حتى يكون خمسين امرأة قيم واحد^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام إذا فعلت أمتي خمس عشر خصلة حل فيها البلاء - قيل وما هي يا رسول الله قال : إذا كان المغنم دولا « أى تكون الغنيمة لقوم دون قوم وذلك عندما يستأثر بها الأغنياء وأصحاب المناصب ويعتقد أنها ملك له .. والأمانة مغنما «أى من يأخذ أمانة يعتنمها ولا يردها لصاحبها» والزكاة مغرما «أى يشق على من تجب عليه الزكاة أداؤها فيعد إخراجها غرامة» ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وير صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل محافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات «المغنيات» ، والمعازف «آلات اللهو الموسيقية» ، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ربح حمراء « أى ربح رملية ملونه» ، أو خسفاً أو مسخاً^(٢).

بهذا النبي العظيم هزم عرش قيصر الروم وأطيح ببايوان كسرى الفرس ، وقامت الدولة الإسلامية على التوحيد والعدل والحرية والكرامة والإنسانية والمساواة بين الناس لتحل محل الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية اللتين كانتا قائمتين على الشرك والظلم والاستبداد والاستعباد ، وامتدت فيما بعد كما ذكر من المحيط الأطلسي غرباً وحتى الهند شرقاً في فترة لا تتجاوز قرناً من الزمان « والزمان كان على موعد مع رسول الله ﷺ ليكون المنقذ للبشرية من الضلال والمواريث المشتركة من القرون السابقة الغابرة » .

وهكذا الحال عندما تصل أمة إلى درجة كبيرة من الفساد والانحطاط والرفاهية والكفر بالنعمة ، لا بد أن تنهار وتتهاوى تحت أقدام أمة أخرى .

ومن عظمة رحمة الله بعباده أن تأتي هذه الأمة التي تحرر الناس من العبودية لغير الله ، وتقيم ميزان العدل والقسط ، وتكون سيدة الأمم وخيرها إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْثَقْتُمُ الْأَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَآرَافَتُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّشُّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿٢٧﴾ [الأحزاب] .

(١) رواه ابن ماجه عن قتاده عن أنس ؓ .

(٢) من حديث حذيفة في إقتراب الساعة ورواه أبي نعيم في الحلية وهي إثنان وسبعون خصلة ذكر منها هذه الخمسة عشر والحديث قد ضعف ولكن نقلته من الكتب لشهادة الجميع من العلماء بأن هذه الأحداث وقعت من آمارات الساعة .

ودخل العرب وغيرهم جماعات جماعات في دين الله أفواجا ، فكانت نهاية الرحلة التي اقترب معها الفراق بإنهاء أجل رسول الله ﷺ ولقائه بالله .
قال سبحانه وتعالى :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر] .

لقد كان عند رسول الله ﷺ سبعة دنائير في مرضه الأخير .. فقال يا عائشة : إبعثي بالذهب إلى علي .. ثم أغمى عليه ، وشغل عائشة ما به ، حتى قال ذلك مراراً كلما أفاق .. كل ذلك ويغمى عليه صلوات الله وسلامه عليه وتشغل عائشة بها به .. فبعث حين أفاق بنفسه إلى علي الذهب فتصدق بها - ولم يبق في بيته ﷺ حين مات شيئاً^(١) .

وعن أنس ؓ قال : لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه ، فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم .. فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رياً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه - فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب^(٢) .

وروى أنه لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال :

مروا أبا بكر فليصل بالناس .. قالت : فقلت يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر . فقال : مروا أبا بكر فليصلي بالناس^(٣) .
قال علي ؓ : لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام قد قدم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لدينا .. فقدمنا أبا بكر^(٤) .

وسنة الدنيا على الدوام هي الفراق بعد الجمع والإكتمال ، وتلك طبيعة الأيام فينا حين يبدد نورها بعد البكمال .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يسلم الإسلام لأصحابه الخلفاء ورجاله التابعين ديناً لا

(١) رواه الطبراني .

(٢) انفرد بإخراجه البخاري في كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ومسلم في كتاب الصلاة .

(٤) صفوة الصفوة لابن الجوزي ١/١١٣ .

غموض فيه ولا تعقيد ، يدعو إلى وحدانية الله - وعقيدة واضحة وبسيطة وميسرة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، تبين لنا الطريق إلى الله وتكشف لنا المصير: قرآنًا وسنة ، وعبادة وأخلاقًا ومعاملة ، وكل ما تحتاج إليه البشرية إلى يوم الدين .. دين السلام والأمان والعزة والأمن والاطمئنان ... شرفاً لأمة محمد ﷺ وهداية لبني الإنسان - فبلغوا عنه دين الله ، ودعوا العباد إلى الله ، وفتحوا البلاد والأقاليم والمدائن والقرى ، وفتحوا القلوب لنور الله ، وحب رسول الله ﷺ واتبعوا منهجه واقتدوا بأثره وسنته .. حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم ولا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة .

ثلاثة وعشرون عاماً قضاها رسول الله ﷺ في دعوة الناس إلى الله .. تم له تبليغ ما أمره الله به وجمع الناس عليه .. وترك للبشرية ميراثاً عظيماً يمتدى به الناس إلى سبيل السلام ، وتركه عظيمة ذات مساحات واسعة وعريضة ، وحدود ليس لها نهاية إلا عند الجنة أو النار .. حوت هذه التركة منهج السماء لأهل الأرض في العقيدة والأخلاق ، والسلوك والإيمان ، والعبادات والمعاملات ... وشملت حياة الناس وحل مشاكلهم وصلاح حالهم وباهم ، ودفعت في الأرواح أمارات العدل والرحمة والطهر والعفة والإحسان .. وأورثت المحيين ميراث العلم والنور والهدى والحق والمصلح ، وأنقذت البشرية والإنسانية المعذبة من الظلم والظلام والباطل والشر والضلال ، ودعت إلى الفضائل الكريمة والأخلاق العظيمة ، وأمرت بالعدل والإحسان وإتباع ذى القربى ونهت عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وخلصت الخلق من عبودية الخلق للخلق بالإخلاص في العبادة والعبودية للخالق الرازق المنعم ، وأعلت المبادئ والقيم ، وأرست على قواعدها ما يرقى به الإنسان إلى أعلى درجات الكمال والجمال ... في وحدانية الله لا تتزعزع ، وطاعة الله لا يمل الله منها حتى يمل العبد ، وأبواب كثيرة وواسعة يدخل منها المؤمن إلى جنة الله وفضله ورحمته ولن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها .

.. تركها عليه الصلاة والسلام على المحجة البيضاء صالحة للزمان ولكل زمان وفي كل عصر وأوان .. يقودنا القرآن فيها للحق والنظام ، وتعطينا سنة الرسول الكريم الأمان والأمان والعز والاطمئنان .

والقضية التي يجب أن تكون الآن في حياتنا الدنيا هي علاقتنا بالله وكيف تستقر، وعودتنا إلى الله وكيف نستعد لها ؟

ذلك ما نتناوله في الأنصبه الذهبية التي شرح الله صدرى في إختيارها من لسان العلماء

ورثة الأنبياء لتبين لنا الطريق فتتهتدى بها إلى رضوان الله ، ورحمة الله .. ونجازى بها الخير والنعيم في جنات الله بإذن الله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بِنُورٍ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ أَلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر] .

ثانياً : أمور للإحاطة والتذكير قبل أنصبه الميراث الكبير وقبل أن نتوجه إلى الكنوز الربانية والنفائس الكريمة النبوية نأخذ منها ما يعيد النفوس إلى فطرتها ، والقلوب إلى عقيدتها ، والعقول إلى خالقها ... وجب التعرف على عدة أمور أهمها ما يلي :

الأمر الأول : ١ - غربة الإسلام في أهله قدر السابقين واللاحقين ^(١) .
وأي شيء أشد على النفس من أن تكون في دارك ووطنك ، وفي بلدك وبين أهلك وأنت تشعر بالوحدة وتحس بالغربة !!! وكم منا من يعيش في نفسه وفي أهله وهو غريب .
أهل الفجور وهم أصحاب أهواء - غرباء وسط أهل الحق لا يطيقون معاشهم بدعوى أنهم مترمتون .. وتلك غربة مذمومة .

وأهل الحق أنفسهم صاروا غرباء باعتناق كل حزب منهم لمذهب من المذاهب يرفض رأى بقية المذاهب، فلم يعد يستجيب إليهم أحد ، وخلقوا الشك بذلك في نفوس الناس .
وأهل الإيثار تنوعت غربتهم فمنهم من هو في غربة مع نفسه حينما يراها عاصية عليه وجانحة ، بينما هو يريد الطاعة ويريد الإستقامة ، قال تعالى :

﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة] .

ومنهم من هو في غربة مع من لا يشاكلة في إيماه يقول رسول الله ﷺ : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ^(٢) .
ومنهم من هو في غربة عن الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ^(٣) .

(١) تهذيب مدارج السالكين للإمام بن قيم الجوزية (منزلة الغربة / ٥٧٧) .

(٢) رواه مسلم من حديث أبو هريرة - والبخاري تعليقاً من حديث عائشة .

(٣) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وروى الترمذي من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى كافر منها شربة ماء .

فهي سجن للمؤمن لما أعدّه الله له من النعيم وهي جنة للكافر لما أعد له الله من الشقاء .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ - فطوبى للغرباء . قيل يا رسول الله : ومن الغرباء ؟ قال عليه الصلاة والسلام : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وفي رواية أخرى الذين يفرون بدينهم من الفتن ، وفي رواية أخرى الذين يحبون ما أمت الناس من سنتي ، وكان الإسلام في بدايته غريباً لسبق الكفر عليه ، وإنكار الكفار له ، كان غريباً في شعائره التي تهدم الأوثان ، وتحطم الأصنام ، وتكفر بالأولياء من دون الله حتى قال المشركون :

﴿ اجْعَلْ الْآيَةَ إِلَهُهَا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص].

وكان المسلمون نزاعاً من القبائل يخالف المسلم قبيلته وينزع عنها وعن دين أبائها وأجدادها - فمن الروم كان صهيب ، ومن الحبشة كان بلال ، وكان سلمان من الفرس ، وعمار من العرب .. تفرقت أوطانهم واجتمعت قلوبهم ، وصار الإسلام وأمره إلى عزة ومنعة .. قلة قليلة مؤمنة استطاعت في أقل من مائة عام أن ترفع راية الإسلام على ممالك كسرى وقيصر وفوق ربوع إفريقيا والهند والصين وفرنسا والأندلس .. فما هو السر في ذلك والذي خير الناس من كل الأجناس ؟ ... إنه الإيمان الصادق بالله رب العالمين أزال سبحانه وتعالى به الغربة منهم .. ذلك ما كان وما قد كان في سالف العصر والأوان .. وأما الآن فقد زادت الغربة بعد أن تفرق المسلمون واختلّفوا وباعوا دينهم بديناهم ... ومن ثم سيعود الدين ، أو يعود الإسلام غريباً كما بدأ لغلبة الجهالة ، وكثرة الضلالة - عندما صار أهل الحق يرميهم أهل الباطل بأنهم هم أهل الباطل !! . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ مِثْمَنًا وَإِنَّمَا مِثْمِنًا ﴾ [النساء].

أو أن الإسلام كان في الزمان الأول كالغريب لا يعرفه أحد ومتى تركه أهله وانصرفوا عنه عادت له الغربة . أو أن أهل الدين في البداية كانوا غرباء ينكرهم الناس ويقاطعونهم ، وكان حالهم مع أقاربهم أسوأ من حالهم مع الأجانب ، وسيكون الأمر كذلك في آخر الزمان ويعود الإسلام غريباً ، حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة ، ويقوم الناس على أهل السنة باللوم والتوبيخ ، ولا يجد أهل الحق على

الخير أعوانا . وترداد غربة المؤمن عندما يدعو كل صاحب بدعة إليها ، ويحض الناس على التأسى به ، وهنا ينشأ الخلاف وتنشأ الفتن .

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] .

والموت خير للمؤمن من الفتنة التي تمزق كيان هذه الأمة وتشتعل نار الفرقة والاختلاف والعصية بين أبناء الأمة الواحدة وتمهوى بها إلى الضياع .

أخرج الطبراني عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن الإسلام قد أقبل وله ثبات وأنه يوشك أن يبلغ نهايته ، ثم يزيد وينقص إلى يوم القيامة ، وآية ذلك .. أى علامة ذلك : فاقه تفضل إلى درجة معها لا يجد الفقير من يعود عليه ، ويرى الغنى أن ما عنده لا يكفيه ، وأن يشكو الرجل إلى أخيه وابن عمه فلا يعود عليه بشيء .. ويمشى السائل بين الجمعيتين فلا يوضع في يده شيء ، حتى إذا كان ذلك خارت الأرض ^(١) خورة لا يرى أهل كل ساحة إلا أنها خارت بساحتهم ، ثم تهدأ عليهم ما شاء الله ، ثم تتفاحم الأرض ^(٢) تفتيح أفلاذ كبدها ... قيل يا أبا عبد الرحمن : ما أفلاذ كبدها ؟ قال بن مسعود رضي الله عنه : أساطين ذهب وفضة ، فمن يومئذ لا ينتفع بذهب وفضة إلى يوم القيامة .

٢- ويعود الإسلام غريباً ولا ملجأ من الله إلا إليه :

وغربة الإسلام هذه المرة شديدة جداً فهي بين أهله إذا افتقرت أمة الإسلام إلى فرق شتى ثلاثاً وسبعين كلها في النار كما جاء بحديث النبي ﷺ إلا واحده هي أهل السنة .

قال عليه الصلاة والسلام : إفتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافتقرت النصارى على إثنين وسبعين فرقة ، وإحدى وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة - والذي نفس محمد بيده لتفتقرن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ^(٣) .

وتلك الغربة وكأنها سنة من سنن الحياة أصابت الخلق وعلى رأسهم الأنبياء الذين

(١) أى خرج لها صوت .

(٢) أى تلقى ما في جوفها على سطحها .

(٣) رواه بن ماجه ١٣٢٢ / ٢ وصححه الألباني (أنظر صحيح الجامع الصغير ٣٥٧ / ١ والأحاديث الصحيحة وهناك روايات أخرى في مسند الإمام أحمد (٤ / ٤٠٢) .

يفرون بدينهم من الفتن ويعتزلون أهل الباطل - فلما ابتلى الله قوم فرعون بالنعمة والسلطان جاءهم موسى ﷺ رسولا يدعوهم للإيمان .

﴿ أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكَرِّمٌ رَّسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ وَأَنْ لَا تَعْلَوْا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان] .

فأصروا على البطش والطغيان ولم يستجيبوا لدعوته فليجأ إلى ربه الملاذ الأخير .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعْتَزَلُونِي ﴿٢١﴾ ﴾ [الدخان] .

فاستجاب له ربه لئيم قدر الله بهلاك الطغاة والمجرمين، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتَّزَكَّيْنَاكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] .

ولما قال لوط لقومه :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿١٧٠﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف] .

يدعوهم إلى منهج الله المتمثل في الفطرة السوية أن المرأة هي الموضع الشرعي فأصروا على الشذوذ والانحراف ليقمى في القرية الملوثون المدنسون .

﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِيهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] .

نفلجأ إلى ربه الذي نجاه منهم وأهلكهم بما فيه إمرأته ألصق الناس به، إذ كانت من الغابرين المهلكين ، وأنزل الله المطر والعواصف لتطهر الأرض من دنس الوحل الذي عاشوا وماتوا فيه .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

وإبراهيم ﷺ حين دعا أباه إلى الحق قابله بالاستنكار والوعيد :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يٰأَبْرٰهِيْمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْحَمَتِكَ وَأَهْجُرَنِي مِثْلًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [مريم] .

ولما انتهى أمر إبراهيم مع أبيه وقومه أرادوا به الهلاك فهاجر ﷺ بنفسه إلى الله .. إلى دار لا يحس فيها بالغرابة .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الصافات] .

وقد تناولنا في مصاحبات أوسع بالحديث عن هذه الأقوام وأبيائهم في بداية الكتاب ..

وهكذا يفر المسلم بدينه من الفتن ويعتزل أهل الباطل ، ويطلب منهم أن يعتزلوه .

وفي وسط هذه الغربة التي ألمت بنا نلتمس الهدى من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ آخذين بالأسباب عسى الله أن يعيد الود بيننا وبين الإسلام عقيدة وتوحيداً وإيماناً ، ولا تكون غرباء في بلدنا وفي أنفسنا وبين أهلينا .

فإذا كانت الكربة واليأس والضيق فلا مخرج إلا بالالتجاء إلى الله مفرج القلوب والتوبة إليه ، وقد أوصانا الإسلام أن نعتزل كل ما هو غريب علينا في أخلاقه ، وأن نعتزل ظلمه .. فإن الذي يخالط الظالم مع ظلمه في وقت ظلمه فهو مثله ، ومن أحب قوماً تشبه بهم ، ومن كره قوماً كره أن يتشبه بهم وأحب أن يخالفهم في كل ما يستطيع مخالفتهم فيه . قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ يَأْتِيهِمُ مِنَ اللَّهِ فَأَجْمَعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء].

وأوصانا الإسلام بالجماعة والسمع والطاعة وحذرنا من الشيطان وأعلمنا أن الشيطان أقرب إلى الواحد وهو من الإثنين أبعد كما بين لنا الإسلام أن فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره يكفرها الصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) ... ومهما أصاب العبد من الأذى والابتلاء فإن الدعوة إلى الحق يثيب الله عليها بالجزاء العظيم .. فطوبى للغرباء « أى الجنة لأولئك الذين كانوا أول الإسلام ويكونون في آخره بما صبروا على الأذى والابتلاءات وتمسكوا بدين الإسلام ينهون عن الفساد في الأرض ... وتكون غربتهم إلى الله بدوام طاعة الله ودوام ذكر الله » .

الأمر الثاني: أعداء هذا الدين لا يملون .

١ - أعداء هذا الدين هم أعداء كل البشرية ، لا يملون من حريم هذا الدين ، يبذلون الكثير من أوقاتهم وأمواهم في تشويه صورته ، وتشكيك أبنائه في عقيدتهم ، وإشعال نيران الفتن بينهم ، وإثارة القلق والاضطراب والحيرة والتخبط بين أبناء الأمة الواحدة بهدف تفكيك وحدتهم وإصابة ترابطهم وتوادهم وتعاطفهم بالشلل ،، فنشبت بينهم

(١) في الصحيحين من حديث الأعمش وجامع بن راشد عن شقيق بن سلمة عن حذيفة وفيه تنبأ رسول ﷺ بمقتل عمر ﷺ وقد تحقق في سنة ثلاث وعشرين بعد ما وقعت الفتن (الملاحم لابن كثير ص ٧) .

الخلافات ، وتقطع العلاقات ، وتبدأ بينهم شجار السب والإهانات .. فإذا ما أفاقوا من غفلتهم وكشفوا الأعياب أعدائهم وعادوا إلى رشدهم عاد الأعداء ليفتنوا بينهم .
وهؤلاء الأعداء أعداء الإسلام قد جعلوا لهم أنصاراً من ضعاف الإيمان في المجتمعات الإسلامية والذين لا تربطهم بالإسلام إلا الهوية أو شهادة الميلاد وهم في واد الإسلام في واد آخر ، يفقدون العقيدة التي تحرك في نفوس المؤمنين دعائم العزة والكرامة ونخوة الغيرة على الدين والوطن ، فيطيعوهم ويتبعوهم فيردوهم بعد إيمانهم كافرين .

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران] .

ومع أن فيهم رسول الله ﷺ ويعلمون ما جاء به من الحق إلا أنهم إندسوا وسط هذه القلة ضعيفة الإيمان وزرعوا الخلافات والفتن بين المسلمين .. يجاربون المنهج والشريعة والإيمان وأهله ، ويزعزون إستقرار المجتمع المسلم والأمة الواحدة ، ويستخدمون كل الإمكانيات لمحاربة هذا الكابوس الذي يقلق راحتهم منذ جاء الإسلام .. يجاربون القرآن ودستوره الإلهي وسنة رسوله ﷺ بكل ما يملكون من أساليب المكر والخديعة ، يستهينون بتعاليمه المقدسة ويصرفون الناس عن أمور دينهم ، بل ويتبجحون ولا حياة في ذمتهم أن يطلبوا من علماء أمة الإسلام إعادة برمجة هذه التشريعات الإلهية التي لا تتفق في رأيهم مع تيارات الحضارة .. وكأنه مؤلف من مؤلفاتهم في كتاب للفلسفة أو القانون الوضعي . لهم الرأي فيما يجب تعديله من هذه المواد بغرض الإصلاح الذي تولوا إمامته على مستوى العالم ! ولا يعلم من أين أخذوا هذه الإمامة ؟ ! والصدافة التي يربطون بها أنفسهم خداعاً مع بقية الأمم ! ويعلمون جميعاً أن القرآن هو الذي قهر بالإيمان عداوتهم ، وأحبط مخططاتهم ووسائلهم الفكرية والثقافية والإقتصادية والعلمية والعسكرية وما شابه ذلك من مخططات .

﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾

[المائدة].

اكتسح القرآن كل خططهم وأفكارهم وفسادهم .. ولكنهم لا يملون، ولم تهدأ قوى الشر والبغى والعدوان ، على رأسها اليهود في حربها المتنوعة على الإسلام والمسلمين ..

يوسعون قاعدة التعليم للغات الأجنبية، ويشجعون على إنشاء المدارس على النمط الغربي في كل بلاد العالم مادامت تهمل لغة العرب . لغة القرآن والإسلام فإنهم يعتبرونها فقيرة ومعقدة في التركيب ولا تستطيع مسايرة النهضة والحضارات .. فسيطرت اللغات الأجنبية على اللسان العربي والإعجاز القرآني ، قد فعلها الفرنسيون من قبل في مصر بعد عام ١٧٩٨ وجعلوا المدارس فرنسية .. فلما طردوا من مصر أحل الإنجليز مكانهم بالثقافة الإنجليزية .. وهكذا فكل همهم دحر ما هو من لغة العرب أو تابع للغة القرآن الكريم .

إن تعليم اللغات شيع عظيم ولا بد منه لمواجهة التحديات ولدينا أمر نبوي أمر به الإسلام بتعلم لغة أعدائنا .. ولكن ليس على حساب لغة القرآن التي تجتمع عليها كلمة المسلمين وتلتقى عليها مواطن العزة والقوة والكرامة .

ومن أبرز وسائل غزوهم الغزو الفكري والثقافي وما جذبوا به شباب الأمة إلى الضياع ، وإن هذا الغزو لأشد خطراً من الغزو العسكري .. الغزو العسكري معلوم بدايته ونهايته ، ولكن الفكري ليس له نهاية ، يتوارث فيه كل جيل من سلفه الإنحلال والأفكار الهدامة من بين المسلسلات والأفلام الهابطة وخاصة الجنسية منها على محطات التلفاز الفضائية والتي دخلت الآن كل البيوت إلى درجة يرثي لها .. حيث يرث الجيل الجديد ذلك الميراث فيعلم من أمر الروتانا سينما والروتانا طرب وروتانا أغاني وال MB C صاحبة الأفلام الأجنبية المغربية ومواعيد المسلسلات ما لا يجيده في معرفة أمر دينه ، فصار بذلك التلفزيون أخطر أنواع الغزو الثقافي تأثيراً لإملاكه حاستي السمع والبصر وقدرة الإغراء بالألوان الجذابة الساحرة ، فيعكس ذلك سلوكاً في التربية يناقض تعاليم هذا الدين الذي يدعو إلى الفضيلة والأخلاق ..

وللأسف لا يملك أحد أن يرد هذا الغزو الذي تحقق به ما يريد أعداء الدين
 وشأننا أن نذكر أولياء الأمور بسرعة الحيلة والحذر من هذا الشيطان الذي تعددت جوانبه المفيدة لمن أراد السلامة والهداية ، ولمن يتحكم في هذا الجهاز غيرة على دينه في البعد عما يخالف تعاليم الإسلام ، فيتم التوازن بين الأمور فلا يفقد أحد الدين كما أفقده أعداءه الدنيا .

٢- المجد للمسلمين فاحذروا كيد المعتدين :

إن الحضارة الغربية غارقة في الفساد والشذوذ الجنسي والوباء لما فيها من الحريات المفرطة والتي وصل فيها الأمر إلى درجة الإباحية فزاد بها معدلات إغتصاب الأطفال وتعاطى المخدرات لشباب هذه البلاد باسم الحضارة والحرية .

ونحن باسم الله وجلال الله نتمتع بالطهارة والشرف ولا يحق لنا أن نربط أنفسنا بهذا الجانب المزيف من الحضارة ، ولنأخذ منهم ما يفيد حياتنا ولا يعكر صفو عقيدتنا الإسلامية .

ومتى كانت هناك صداقة بين القوة الظالمة والقوة المقهورة حتى يكون لهم الولاء على أمتنا وإصلاح ما فسد لدينا ؟؟

إن مسئولية الإصلاح والعودة بالبشرية إلى الإسلام هي مسئولية الإسلام وحده، وتبقى هذه المسئولية من وظيفة العلماء ورثة الأنبياء ، والدعاة المصلحين بالدرجة الأولى .. فالمسئولية إسلامية وليست غير ذلك .

وإنه لا يختلف أحد أن الأزهر الشريف بمصر ، هذا الصرح العظيم والمتين قد فاق رسوخ الأهرامات بتخرجه آلاف العلماء ، ونشر تعاليم الدين الحنيف إلى جميع أنحاء العالم ، ولكنه واجب على شعوب الأمة وأبنائها أن تشارك المسئولية لحماية أمتها من أعدائها بكل السبل .

لقد ابتلى الإسلام على مر العصور والدهور بالأعداء الذين أحاطوا به من كل جانب وبالأمورات التي دبرت ضده لتفرقة كلمته وتشيت شمله من يوم الردة إلى أيام الانقسام والحروب ، وإلى نكبة هولوكو والمغول ، إلى هجمات الصليبيين ، وإلى إلغاء الخلافة الإسلامية وتفريق كلمة المسلمين وجعلهم أمماً وشعوباً مختلفة بعد أن كانوا تحت لواء الخلافة الواحدة في الأمة الواحدة .

الإسلام اليوم يواجه حرباً ضارية يخطط لها ، وتصرف الأموال على خططها .. والمسلمون في أسوأ حالهم وقد صارت الأمة في حالة من الضعف والانزامية والتبعية لأعداء هذا الدين وتفرقت كلمة المسلمين .

العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة مستهدف من قوى البشر والظلم والكفر ، فالدماء تنزف كل يوم في أبناء هذه الأمة بسلاح أعدائها صنعوه لندمر به أنفسنا ..

رأينا لبنان وقد أكلتها الحرب الأهلية المدمرة وإغتيال أحد قادتها ،، وشاهدنا العراق وهي تنزف من أبنائها صفوة الرجال ، ونستعمر وتلطيخ شوارعها بالدماء .. وهذا شعب فلسطين المشرّد نكتب فيه شعراً والأقصى أسيراً ينادى من يحرره من أيدي المعتصمين، وإسرائيل تسقط الضحايا في كل يوم .. ورأينا الأعداء يمتصون دماء الشعوب المسلمة وهم الآن يتربصون بسوريا وإيران ويتدخلون في شئون السودان ويعطون الأوامر لتنفيذ مآربهم في ستار مجلس الأمن ، ولا ندرى ماذا سيكون غداً وأى شعب جديد أو وطن جديد مسلم تدور عليه دائرته ؟

إن قلّمي يرتعش في يدي وكأنه عاجز عن تفسير المعاني والأفكار التي تدور برأسي ، والغيرة التي تسكن قلبي بينما تعود ذاكرتي لقراءات كتبها المختصون والمؤرخون تذكّرني برجل من رجال الأمة وهو عقبة بن نافع الذي وقف على شاطئ المحيط الأطلسي وهو يقول : اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك - اللهم فاشهد^(١) .. وعمر بن الخطاب لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه^(٢) ، وأتى الكعبة وأشرف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ثم قال : شأهت الوجوه^(٣) ، من أراد أن تشكله^(٤) أمه ، أو يؤتم ولده وترمل زوجته فليتبغني وراء هذا الوادى ... وهو نفسه عمر الذي كان يجارب الإسلام والمسلمين .

رجال لهم بطولات وتضحيات ، ومنهم في الإسلام كثير ممن تربوا على الإيمان والإسلام ، وتخرجوا في مساجد المدينة ومكة والأقصى وقرطبة والأزهر والأموى ، وهم أصحاب فضل في العلم والمعرفة ونشر الهداية والتوحيد والعدل والمساواة في مدرسة محمد ﷺ .

لابد للعرب من الوحدة حتى تعود الأمة لمجدها ، وتصد أعدائها ، ويكتمل إقتصادها .. فلا تعيش دولة منها تحت رحمة المساعدات .. ويعود للإسلام مجده وللمسلمين قوتهم وعزتهم .

(١) الجمعة والعبيدين لعلماء الأزهر ٣٦٦ ، حتى يعلم الشباب للشيوخ عبدالله علوان بجامعة الملك

عبدالعزیز .

(٢) أى ألقاها على منكبه .

(٣) أى فتحت .

(٤) أى تفقده .

س ٣ - عظيم القبط يشيد بقوة المسلمين في عزهم :

في دعوة رسول الله ﷺ للملك الدنيا يدعوهم إلى الإسلام كتب عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (١٥) [النازعات] .

فأتقمت به ثم إنتقم منه .. فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ، فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منهُ ، فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصراني .. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به فقال المقوقس : إنني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الحبأ والإخبار بالنجوى (١) ، قال « وسأنظر » وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب العربية فكتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعوا إليه وقد علمت أن نبياً يأتي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت إليك بغله لتركبها والسلام عليك « ولم يسلم » ، وقد أشرنا إلى هذه النهاية من المقابلة في نهاية الفقرة الثانية من هذا الجزء في دعوة النبي ﷺ أهل الكتاب لدين الله فإحدى الجاريتين ماريه التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاهما لحسان بن ثابت ؓ ، والبغلة « دلل » بقيت إلى زمن معاوية ؓ ..

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف ربيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ،

(١) الحبأ : ما خفى في غيره ، وإخراجه : إظهاره ، والنجوى : السر .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم وهنا قال المقوقس والذي يحلف به :

لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ... هذا وصف المسلمين أيام كانوا في عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .. فماذا نحن اليوم؟! .. ما حدث أن المسلمين تخاذلوا عن واجبهم وأعرضوا عن تعاليم دينهم وأوامر ربهم إلا من رحم الله .. فتغلغلت الفتن في جوانب الأمة ، وانتصرت مؤامرات عدوهم .

وقد أوضح النبي ﷺ لأمته نتائج إنصرافها عن دينها إلى أهواء الدنيا والتعلق بها فقال عليه الصلاة والسلام : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قال قائل : يا رسول الله وما الوهن قال : حب الدنيا وكراهية الموت^(١) .

٤ - شاء الأعداء أم أبوا فالحق ظافر منصور .

ولو تأملنا قليلاً يامعان في كتاب الله وعدنا معه إلى بداية نزولة على سيدنا رسول الله ﷺ لوجدنا أن أعداء هذا الدين لا يملون من حربهم لهذا الدين الذي يفضح أساليبيهم الفكرية والثقافية والإقتصادية وغيرها من تخطيط اليهود عليهم لعنة الله ، وما تمتلئ قلوبهم به من الحقد على المسلمين ، ويسعون بكل سبل المكر والخديعة لأذية أبناء هذا الدين .. ولكن القرآن إكتسح كل خططهم وأفكارهم وإفسادهم .. وإلى يوم القيامة اليهود هم اليهود ! لقد أصبحوا أقوى نفوذاً وأشد تنظيماً من تلك الفترة التي نزل القرآن فيها يكشف هويتهم، ويحذر الأمة من خطرهم ... إنهم ليعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأن الله إختارهم لسيادة العالم .. فأباحوا لأنفسهم كل الجرائم والمنكرات لتحقيق إعتقادهم ، وإنهم ليعلمون الحق بهديه وعدله من رسالة محمد ﷺ ودعوته، ولكنهم إنصرفوا عنه وشوهوه ، وناصروا الباطل وأيدوه .. ولهم مخططات ومطامع في بلاد

(١) أخرجه أبو داود ٤٢٩٧ - وابن عساكر عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ - ورواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة .

(٢) يعني القسطنطينية (والحديث رواه الإمام أحمد بإسناده ١٧٦/٢ والحاكم ٤٢٢/٤ وصححه والدارمي ١٢٦/١ والألباني في السلسلة الصحيحة .

المسلمين ،، يحملون بدولة عاصمتها القدس تمتد حتى الغرب ، ثم تكون روما عاصمتهم في النهاية ، ولكنها نهايتهم بإذن الله ، وروما ستصدق فيها نبؤة محمد ﷺ بفتحها على أيد المسلمين .

فقد ورد في حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : بينما نحن حول رسول ﷺ إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً « القسطنطينية أو رومية »؟ فقال عليه الصلاة والسلام : مدينة هرقل تفتح أولاً^(١) ، وقد فتحت عام ١٤٥٣ على يد القائد محمد الفاتح ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى في أوروبا وأفريقيا وهابها الأوربيون حتى سموه بالسيد العظيم ، وليس هذا الفتح الأكبر المقصود بالحديث .. حيث تسقط القسطنطينية على أيدى المسلمين بدون قتال ، سلاحهم التكبير والتهليل ، وستفتح روما وغيرها بإذن الله^(١) .

فلنيس اليهود أحلامهم وليرحلوا عنا وعن أرضنا المغتصبة فالنصر والله آت لنا لا شك فيه .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَنْصُرُوا اللَّهَ يَضُرُّكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) ﴿ [محمد] .

وفي الحديث الذى رواه الأمام أحمد قال رسول الله ﷺ : ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله في هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر .

﴿ وَلَنَّا بَلَّغْنَا أَشَدَّهُ ؕ مَا آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) ﴿ [يوسف] .

الباطل لا يدوم .. والحق ظافر منصور لا شك فيه .. والمستقبل للإسلام شاء الأعداء أم أبوا مهما كانت الصعوبات والمعوقات .
٥ - صورة أعداء الدين في كتاب الله المبين .

وقد وضع القرآن الكريم أمامنا الصورة الكاملة وبين لنا أن اليهود هم أشد الناس بغضاً وعداوة للمؤمنين ، وعداوتهم لدين الإسلام ظاهرة ومكشوفة، مع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل قال تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُحْبَانًا وَأَنْهَرُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢) ﴿ [المائدة] .

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان (محمد السبيعي) .

فإنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، وكيف يكون لهم عهد وذمة وقد نقضوا كل العهود واعتدوا على المؤمنين وعلى دينهم الإسلام الذي رفضوه وأعرضوا عنه وأستبدلوا به متاع الدنيا - وباعوا حجج الله بالثمن القليل الخسيس ، فاشتراوا الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى وجحدوا الحق على علم منهم ومعرفة ، فتجاوزوا الحلال إلى الحرام بغدرهم وجحودهم ، وقد علم الله ما يظهرون وما يخفون ، وما يدور بخاطرهم من البغض والعداوة ، لا يرقبون عهداً ولا ذمة ولا قرابة ولا ميثاقاً - وبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين مكرهم وحذرهم من شرهم فقال سبحانه تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْرِهِمْ وَأَنبَأَ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨) ﴿ أَشْرَوْا بِعَائِنِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩) ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (١٠) ﴿ [التوبة] .

وأهل الكتاب والمشركون كلاهما يضمم للمؤمنين الحقد والضغينة ، يكرهون لهم الخير، ويشككوهم في كل أمر قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشُّرَكِيِّنَ أَن يُتَزَلَّ عَلَيْكُم مِّن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٥) ﴿ [البقرة] .

فإن عداوتهم للمؤمنين عداوة كبيرة إلى درجة يتمنون فيها زوال نعمة الله حسداً منهم للمؤمنين وتسفيهاً للحق المبين ، وتمنوا أن يردوا المسلمين عن دينهم فيستون في الكفر ، لذلك أمرنا الله تبارك وتعالى أن لا نتخذ منهم أنصاراً ولا أعواناً ، ولا ولياً يلي شئوننا إلا من حافظ على عهده وميثاقه مع المؤمنين فهؤلاء لهم الأمان .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦) ﴿ [البقرة] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَذُوَا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَفْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧) ﴿ [النساء] .

ذلك حتى يحسنوا إليكم بإظهار المودة والإسلام بالانضمام إلى جماعة المسلمين فإن تولوا وانصرفوا فخذوهم واقتلوهم في أى مكان ، ولا تتخذوا منهم ولياً لشئونكم ولا

نصيراً تستعينون به إلا من استثناه الله في الذين بينهم وبين المؤمنين عهد وميثاق .
 لقد اختاروا الضلالة على الهدى فتركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم وإنهم لدائبون
 بكيدهم وما تحمله قلوبهم من الغل والعداوة على إضلال الفئة المؤمنة عن سبيل الحق .
 قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ بَشَرُونَ أَصْطَلَةٌ وَيُرِيدُونَ أَن
 يُضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (٤٤) [النساء] .

إنهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة ليست من هدى
 الله ، ولا تستند إلى حق .. كلها ضلال ، وهذا حال أكثر من في الأرض .
 قال تعالى : ﴿ وَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٧٦) [الصافات] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٣) [يوسف] .
 وقال جل في علاه : ﴿ وَلَيْسَ يُطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمُ إِلَّا يُخْرَصُونَ ﴾ (٣٣) [الأنعام] .

فيحسدون الناس على ما أنعم الله عليهم بكتابه الكريم ورسوله العظيم ﷺ .. وقد
 روى أن شاس بن قيص اليهودي - وكان شديد الحسد والعداوة للمؤمنين مر على نفر من
 أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج يتحدثون في مجلسه ، فغاضه ما رأى من
 اجتماعهم وألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة في الجاهلية - فأمر فتى من اليهود أن
 يجلس بينهم ويذكرهم بيوم « بعثت » وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج « وينشدهم
 بعض الأشعار فيه ففعل .. فتكلم القوم وتنازعوا وتفاخروا ثم تداعوا إلى السلاح .. هم
 اليهود كما هم لا يملون من الحرب على المسلمين ويدسون بينهم من يفتت جمعهم ويفرق
 شملهم ويمزق وحدتهم ..

وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال : يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا
 بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ؟ فعرف القوم أنها نزعة شيطانية فالتقوا
 السلاح^(١) ، فنزلت الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (١٠٠)
 [آل عمران] .

إنهم يتمنون أن ينسلخ المسلمون عن دينهم وكتاب ربهم ، والله سبحانه وتعالى يحذرنا
 منهم ومن مكرهم فيقول سبحانه :

﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ [الأنفال].

فإنهم يبذلون كل الجهود بكل الجحود لزعزعة عقيدة المسلمين والمؤمنين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٤٠﴾ [البقرة].

وأنظر في كتاب الله تجد أن الله سبحانه وتعالى في سورة الممتحنة نهانا عن موالاته أعداء الله من غضب الله عليهم سواء من المشركين أو من اليهود .

في بداية السورة نداء من الله سبحانه وتعالى يدعوا المؤمنين ويصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حبال أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم فإنهم منه وإليه يعاد بهم من يعاديه ، وإنهم لا يجوز لهم أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائهم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَىٰ يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١﴾ [المتحنة].

وفي ختام السورة بين الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء اليهود الذين غضب الله عليهم قد يشوا من ثواب الله لهم في الآخرة كما يشس الذين من قبلهم من ثواب الله وكرامته حين كذبوا بالبعث والنشور ومن الموتى أصحاب القبور ، فقد إنقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدون - قال سبحانه وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ ﴿١٣﴾ [المتحنة].

وفي مثل هذه الآيات في كتاب الله الكثير والكثير نذكر منها :

قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [المائدة].

وقال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلٰهَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مَّيْبِتًا﴾ ﴿١٤٤﴾ [النساء].

فشرح الله بذلك عداوتهم ونهى أن يتخذ المؤمنون منهم أولياء وأصدقاء وأخلاء وأن الذين يردون إرادة الله ويتحدون الخالق سبحانه وتعالى ، وقد جحدوا بوحدانيته ليسقطوا قدره ، ويصدون عن سبيله ... أعلمنا الله أنهم لن يطفثوا نور الله سبحانه وأنهم مساقون

إلى جهنم قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال].

وهذا أردناه تذكيراً بأعداء البشرية ، أعداء الدين الذين يبذلون الكثير من أوقاتهم وأموالهم في تشويه صورة هذا الدين العظيم ، وإشعال الفتن بين أبناء المسلمين ... وهم لا يملون ولا يكلون !!

الأمر الثالث - النفس البشرية بين الحق الثابت والهوى المتقلب .
١ - الحق واحد لا يتعدد :

أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأن الذي جاء به من عند الله هو الحق الذي يحمل الهدى والبيان ، لا مرية فيه ، ولا شك فيه ، ومن اهتدى بهذا الحق وسلك سبيله واستقام عليه فإنما يعود النفع عليه ، وقد بغى الخير لنفسه ، ومن ضل واعوج عنه وزاغ فما جنى إلا على نفسه ! وعليه وبال ضلاله .

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس].

وما رسول الله ﷺ موكل بالناس حتى يكونوا مؤمنين وإنما هو عليه الصلاة والسلام نذير .. هذا الحق بقوته وصدقه وثباته تقوم به السماوات والأرض ، وتجرى عليه سنن الكون ، فلا ينحرف إلى الهوى أو يميل عن صراط الله المستقيم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون].

ولو خضع هذا الكون لرغبات الناس وأهوائهم لفسدت كل القيم والمبادئ والأخلاق والأوضاع ، فتسير حركة الحياة حسب حالة الإنسان إتفاقاً أو إختلافاً مع الحب والكراهية للحق ...

ولو أجاب الله الناس إلى ما في نفوسهم من الهوى وإختلاف الآراء والأهواء لفسدت البلاد وفسد العباد .

قال تعالى: ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْفَرُوا بِالْحَقِّ كَذِبُونَ ﴾ [٧٠] ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِذِكْرِهِمْ فَهَمُّوا بِذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [٧١] [المؤمنون].

الحق واحد ثابت ومستقر ، قواعده قوية وسليمة على فطرة الله ، لذلك فهو دائم التصادم مع أهواء الناس يقف في طريق شهواتهم وميلهم إلى الباطل والأهواء فيكروهونه

وبحاربه ، وينقادوا إلى الباطل ويعظموه . قال سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِرُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ [الزُّخْرُف].

وقد جعل الله الحق - الحق إسماً من أسمائه سبحانه ، فهو الحق ، وهو الحى الباقي الذى لا يزول ، نزل كتابه بالحق ، وبالحق أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً للطائعين ونذيراً للعاصين .

﴿ وَيَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٠٥) ﴿ [الإسراء].

ويبد الله سبحانه وتعالى الهدى والضلال فليعمل كل ما يشاء - اعملوا ما شئتم ! فيما الإيثار ولن يضيع الله ثوابه للمؤمنين الطائعين ، وإما الكفر ، وقد أعد الله لأهله ناراً تشوى وجوه الكافرين .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيضُوا بِعَافُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَنْسِكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢٩) ﴿ [الكهف].

وذلك ليس للتخيير بين الكفر والإيمان وإنما الوعيد والتهديد .

قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ

﴾ (١٨) ﴿ [الأنبياء].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمِ الْغُيُوبِ ﴾ (١٨) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَمَا

يُعِيدُ ﴾ (١٦) ﴿ [سبأ].

.. وزهق باطلهم واضمحل وهلك ، ولا بد للحق من قهر لمن عاداه وناوأه - قال

سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) ﴿ [الحديد].

البيانات واضحة والدلائل قوية والكتاب به الأحكام والشرائع والميزان للعدل في المعاملات ، والحديد فيه القوة والسلاح للقاء العدو ، وعلم الله أزل يظهره سبحانه

خلقه، وفي الحديث «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»^(١) أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع^(٢).

وإن الحق في النهاية ظافر منصور، والباطل هش سريع العطب كالزبد يطفو على الماء، ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء، ولا ثبات للباطل مع الحق ولا بقاء، تدفع الرياح بالباطل ويقذف به الماء فيتلاشى، وما ينفع الناس يبقى لنفع الناس.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد].

٢- الأهواء والباطل شريعة الجهل والانحراف.

والهوى باطل متقلب متشعب المسالك، فذلك الذى لا يتداركه الله برحمة الهدى.. والنفس تميل إلى ما تشتهيها فيغلب عليها الهوى، والهوى لا يركن إلى الحق، ولا ستريح له.. فتذهب به النفس إلى الضلال والبدع.

وفي المسند من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث مهلكات وثلاث منجيات - فالمهلكات شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه - والمنجيات تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى.. وكان من دعاء سيدنا رسول الله ﷺ أسألك كلمة الحق في الغضب والرضا.

يقول الإمام بن القيم في كتابه روضة المحبين:

إن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع، ولا يكون إماماً ولا متبوعاً فإن الله تعالى قال لخليله إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة].

وكل من اتبع هواه فهو ظالم لا ريب فيه لقول الله تعالى:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

[الروم].

وليس لمن أضله الله ناصر ينصره فينقذه من الضلال، اللهم إلا من سد وجهه نحو الإسلام وما جاء به من الحق المبين، ولا تغيير لدين الله المتين، فالهوى لا ضابط له ولا

(١) نقلا من ابن كثير ٣/ ٥٩ (والتعليق له أيضا).

(٢) من تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩.

مقياس ، إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ومطامعها التي لا تستند إلى حق، وذلك هو الضلال الذي لا يرجى معه هدى.

أما العقيدة الواحدة فهي ثابتة لا تتفرق معها السبل إلى شيع وأحزاب ، وأهواء ونزوات ... والقلوب المنحرفة تفقد كل الدلائل والحجج وإن الله الذي خلقها هو الذي أنزل إليها هذا الدين بالهدى والحق ليحكمها ويقومها من الإنحراف والميل إلى الأهواء .. فإذا انحرفت النفوس عن فطرة الله لم يرد لها إليها إلا هذا الدين القيم الذي يجمع المؤمنين على طريق ثابت يتحرك بالحق وتحميه عقيدة الحق ... وليس لأحد من قدرة الله منقذ ولا مجبر لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فسدد وجهك للدين الذي هذاك الله إليه ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها على معرفته وطاعته وتوحيده .. وأنه لا إله غيره .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الصِّرَاطُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم].

وجه الله رسوله ﷺ أن يحمل الذين يغفلون عن ذكر الله وقد شغلتهم قلوبهم بأهوائهم فاتبعوها - وآثروها على طاعته سبحانه ، وشغلوا عن الدين بالدنيا .. وصارت أعمالهم وأفعالهم تفریطاً في حق الله ، وضياعاً وبعداً عن فطرة الله .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَحْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف].

وإن الذين تركوا الحق الثابت وفارقوه ومالوا عنه إلى الهوى قد خذلهم الله عن طريق الصواب وتقادفتهم الأهواء ومزقتهم الحيرة وسيرتهم هواجس الشياطين .. فهادت الأرض من تحتهم ، وفقدوا الأمن والطمأنينة والقرار والثبات والإستقرار ، فلا ثبات لهم ولا يستقر أمرهم على حال ولا يقر لهم من بعد الحق قرار ، وهم في أمر مختلط مريب ملتبس لا يعرفون فيه الحق من الباطل .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق].

وهذا حال كل من خرج عن الحق يعيش في باطل مضطرب ، فإذا مال عن الحق عبد ما يهواه ويراه مريباً لنفسه .. وذلك لا يورث إلا الجهل الذي يمنع صاحبه من الحقيقة ، ويصده عن سبيل الرشاد والفلاح فيتخذ معبوده هواه ، ويعبد الشيء الذي يهواه ، فإذا كان على علم بالحق غير جاهل به فهو أشد قبحاً وشناعه ممن يضل عن جهل ، وقد أضله

الله وخذله، وطبع على سمعه فلا يعتبر آيات الله ولا يعقل ما فيها من النور والبيان وطبع الله على قلبه فلا يعقل به شيئاً ولا يعي به حقاً .

قال المولى تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عَيْرِ وَحْتَمَ عَلَى مَعْبُودِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجنانية] .

ورسول الله ﷺ ليس حفيظاً أو وكيلاً على أفعال الجاهلية ، فإنهم يسمعون ولا يعون .. ومن ثم فإنهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، وما هم إلا كالأنعام التي لا تعقل ما يقال لها ، بل أضل طريقاً منها لعدم طاعتهم لربهم وشكرهم نعم الله عليهم وإتباعهم الحق ، والبعد عن الهوى .

والضال من خذله الله فلم يوفقه لطاعته ، وهو الخاسر الهالك - إنهم لم يستفيدوا من قلوبهم وجوارحهم التي جعلها الله لهم سبيلاً للهداية فصاروا كالبهائم بل شر منها - والبهائم تهتدى لمراعيها وتنقاد لراعيها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف] .

لقد عطلوا جوارحهم وقلوبهم عن الحق وإتباعه وعاشوا غافلين لا يتدبرون .. والعلم الذي لا يعصم صاحبه من الأهواء والشهوات والرغبات يلزم الشيطان صاحبه لا يفارقه - يغويه ويدفع به إلى الباطل والضلال .

وحين تخضع النفس لهواها وتحكمها شهواتها فقد جعلت منه إلهاً يعبد ويطاع ، فذلك الذي لا يقبل الهدى ، ولا يتوكل رسول الله ﷺ بأمره ، لأن هؤلاء تجاهلوا الحقائق واتخذوا من أهوائهم آلهة مطاعة كما ذكر في الآيات كالأنعام لا تدرك أو تتدبر ، والبهيمة تؤدى وظائفها التي أودعها الله أداءً كاملاً ، بينما يهمل الإنسان نفسه فلا ينتفع .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ [آم] تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان] .

وكذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموجبات الإيذان ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها فلم يوفق لإصابة الحق وأقام ميزان حياته على جهل - لا يقيم للحق وزناً .

* فجعل بحقوق الشريعة ، عندما يشرع الإنسان لنفسه دون شرع الله .. فحين يشرع لنفسه فأول ما يفكر في تشريعه حماية نفسه وحماية مصالحه ، وحين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة ، إنما هي العدالة المطلقة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور] .

* وجهل بحقوق العبودية .. عندما يرضى العبد بما يقدمه من الطاعة ، ورضى العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه ، وجهله بحقوق العبودية ،، والرضا بالطاعة من حماقات النفس وباطل الشيطان المضل بالهوى . قال جل وعلا :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « سدودا وقاربوا وأعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله - قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

* وجهل بحقوق التوحيد .. عندما يتخذ الناس من دون الله أولياء وشفعاء يتوجهون إليهم في الملهمات ويتضرعون إليهم في الشدائد ، وعندما يستسلم الناس لأعداء الدين وهم يحدثون بينهم الشقاق والإنقسام إلى طوائف تتشاجر وتترشق بالسباب ، وتترامى بالتهمة ويكيد بعضها لبعض - في الوقت الذي يتميز فيه شمل المسلمين في أنحاء الدنيا ما بين قتل وتشريد وإهانة في حق الإسلام والمسلمين ، وما يهدد الباقين منهم في نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شر قد اقترب » ^(١) .. والكل يتصل من المسئولية ، ويقول نفسى نفسى .. فصار رباط المسلمين كما ذكرنا قبل لا يتجاوز انتهاؤهم للإسلام بالبطاقات الشخصية وشهادات الميلاد - وصار المناق هو السيد ، والمستسلم لعبودية البشر هو القائد ، والمتخلف عن حدود الله هو الذى ينال المجد والشهرة ويعيش في الأمن والأمان .. لقد تفرق الناس في الحق وتجمعوا على الباطل ، وانصرفوا عن دينهم ، وعن كتاب ربهم .. وكأن الدنيا خلقت لتعمر فيها إلى الأبد .. وكأن الموت لم يكتب علينا .

ولا فرق في أن يكون المعبود حجراً أو صنماً أو عاجلاً من ذهب ، أو مذهب من المذاهب ، أو قبر ولى من الأولياء ، أو هوى متبع ، فليس هناك هوى متبع يهدى إلى حق مهما كانت الراحة ومهما كان الإطمئنان .. هناك إله واحد هو الذى يستحق العبادة

(١) من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش (متفق عليه) .

والعبودية والطاعة والتشريع سبحانه وتعالى لا شريك له ،، هو الله الخالق الرازق المنعم .

﴿فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْ تَضُرُّوهُ﴾ ﴿٣٣﴾ [يونس].

وكم من الباطل المتقلب المسالك ، والذي لا يركن إلى الحق وتذهب به النفس إلى الضلال فتعبد الأصنام المعبودة بالهوى .. أصنام المال الذي يحبونه حباً جما ، ويكثرونه فلا يصل إلى مستحقه ،، وأصنام الغرور التي تورث الناس الهوان والاستعباد والسخرية .. كله هباء منثورا وزيد يطرحه الشاطئ في نهاية الأمر فتدفعه الرياح ويتلاشى ثوابه .

وبالحق تكون الإستقامة والسلامة والقدوة والإتباع وحفظ الكرامة، ومنهج الله وشريعته لا تسلك إلا طريق الحق، وما عداها فهو الهوى والباطل .. الجهل الذي لا يقيم للحق وزنا ويزيد الجاهلين جهلاً على جهلهم، ولم يدفعوا عن أحد شيئاً من عقاب الله ، والظالمون بعضهم أنصار وأعوان بعض على أهل الإيمان .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ۖ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية] .

سبحانه وتعالى الولي لمن اتقاه وأرضاه .. ينصره ويدفع عنه كل من أراد به سوء . وطاعة الله حق وأمر ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله ولن يرتفع الباطل بالأهواء إلا إذا غفل الناس عن الحق الذي شرعه الله الحق .

وحين تنفلت النفس من ثبات فطرتها وتخضع لهاها فلا قيمة عندها للحق الذي يمثل الهداية والطاعة ، ومن سلم نفسه لهواه فكان هو دينه ومذهبه ومنهجه .. فقد كتب الله عليه الشقاء والضلال ، وكان أسوأ حالاً من الأنعام .

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿١١﴾ [الفرقان] .

ويجري قدر الله هداية من يجاهد الهوى كما جرى قدره باختلال من زاغ عن الحق واتبع هواه وكان أمره فرطاً .

والذين أصابهم توفيق الله والإهداء إلى طريقه فدافعوا عن دينهم الحق مبتغين نصرته قال المولى سبحانه وتعالى فيهم .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦﴾ [العنكبوت] .

وإن الله لا يزيل ما يقوم من العافية والنعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم بظلم بعضهم بعضاً وإعتداء بعضهم على بعض فتحل بهم عقوبة الله .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ

مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِي ﴿١١﴾ [الرعد].

وإذا أراد الله بقوم خزيًا وهلاكًا فلا يقدر على رد ذلك عنهم أحد غير الله ، وليس لهم من يلي أمرهم غيره سبحانه وتعالى ..

والذين تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة والشهوات وخالفوا الحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم - ما حملهم على ذلك إلا الظلم لأنفسهم وللحق وللحقيقة .. ولو أنهم أخلصوا لعقيدتهم واتبعوا منهجهم ما تفرقوا... ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى يمهلهم حتى يعودوا إليه ، ولو شاء الله لعجل لهم العذاب ولكنها حكمة أرادها الله .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُّريبٍ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

ذلك لأن الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم مقلدون لآبائهم .

٣- العقول البشرية لا تبلغ الكمال في التفكير ، والنفوس لا تسلم من الضعف والتقصير .

والعقول البشرية مهما بلغت من الإدراك قد تميل عن الحق والرشد والهوى ، والنفوس لا تسلم من وسوسة الشيطان .. فتتحول فجأة من الحق إلى الباطل ، ومن الإستقامة إلى الإنحراف ومن السنة إلى البدعة ،، ولهذا سمي أهل البدع بأهل الأهواء .

النفس تتعرض للحظات الضعف البشرية مهما بلغ كمالها وقوتها ، وإن لم تحاسب ذاتها أولاً بأول قد يفلت منها زمام الحق تحت أى مؤثرات هادمة .. ولما للشيطان عليها من سلطة الإغواء ... والرسول ﷺ يقول إن الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم في العروق^(١) وروى عن بن حسين أن صفية بنت حبي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد . قالت : فأتيته فتحدثت عنده ، فلما أمسيت إنصرفت فقام يمشى معي ، فمر رجلاً من الأنصار فسلمها ثم إنصرفا ، فناداهما وقال : إنها صفية بنت حبي ، فقالا : يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً ، فقال : إن الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم من الجسد ، وإنى خشيت أن يدخل عليكما^(٢) .

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) متفق عليه .

وإنه لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات التي يتعرض لها الإنسان فهو سبحانه المعين على الطاعة والمعين على ترك المعصية .

والإسلام يبين في كل حالة من الحالات موقفاً من المواقف يتخذه العبد عظة وعبرة ودروساً يمتدى بها إلى إخلاصه في إتباع الحق والتخلص من الهوى ومن كل الأهواء .. والمطابقة بين العقيدة والسلوك ليس بالأمر اليسير إنه أمر صعب ويحتاج منا إلى جهاد، ولكننا أمرنا أن نأخذ بالأسباب ونجد ونجتهد كل الإحتهاد ولكل أجر بمشيئة الله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۗ ﴾ [الكهف] .
فنحن بشر .. وكلما تعرضنا إلى لحظة ضعف فلنأخذ بأسباب طرحها بعيداً عن أنفسنا بجهد النفس حينما تضعف وتميل إلى الهوى .. وإنه مهما حاسب الإنسان نفسه لم تسلم عن المعصية والتقصير في حق الله تعالى .. بذلك لا ينبغي أن يهملها الإنسان حتى لا يتعسر عليه فطامها ، فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أمانة بالسوء ميالة إلى الشر .. وقد أمرنا بتزكيتها وتقويمها وقيدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها .. فأنت إن أهملتها جمحت وشردت ، وإن لازمتها بالتويخ والعتاب كانت هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها .. والنفس الدنيئة تحوم حول الظلمات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقدار بعكس النفس الشريفة التي لا ترضى من الأشياء إلا أعلاها وأفضلها وأحدها عاقبة .. هذه النفس الأمانة مذمومة تأمر بكل سوء .. وما تخلص أحد من شرها إلا بتوفيق الله كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز .

﴿ وَمَا أَتَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأْمَارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف] .
ويضرب لنا الله الأمثال في كل مجال ... فهذا مثل أوردته السيرة النبوية وتناولته تفاسير أهل العلم لرجل من المؤمنين المقربين تعرضت نفسه لهذه اللحظات .. لحظات الضعف البشرية .

أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز لغزوة ، وقال «اللهم غم عليهم خبرنا» - ذلك بعد أن نقض أهل قريش عهودهم مع رسول الله ﷺ عام الحديبية ^(١) .. وأخبر رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه بوجهته ، وكان منهم حاطب بن أبي بلتعة والذي ذكر اسمه قبل عندما

(١) التفصيلات لمن أراد بالبداية والنهاية لابن كثير (٢/٥٩٥ : ٦١٠) .

حمل كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية وزعيم القبط ، وهو أيضاً رجل من المقربين إلى رسول الله ﷺ قد شهد بدرا ، وكان من المهاجرين - وقد ترك أولاده وماله بمكة .. فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة مشركة إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يدا .

فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك إستجابة لدعائه وإمضاءً لقدره في فتح مكة ، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها .

يقول علي بن أبي طالب ؓ : بعثني رسول الله ﷺ وأبي مرثد والزبير بن العوام « وفي رواية أخرى أنهم علي والزبير والمقداد » وكلنا فارس .. وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين - فأدركنها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ... فقلنا : الكتاب ؟ فقالت ما معي كتاب ، فأنحنأها فالتمسنا فلم نرى كتاباً - فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك - فلما رأات الجرد أهوت إلى حجرتها وهي محتجرة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ .

فقال عمر يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلاضربن عنقه ، فقال النبي ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ أردت أن تكون لى عند القوم يد دفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال : « صدق لا تقول إلا خيراً » فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلاضرب عنقه فقال النبي ﷺ ليس من أهل بدر ؟ فقال لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو قد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم^(١) فأنزل الله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المتحنة: ١].

(١) رواه البخاري في المغازي - ورواه مسلم في صحيحه في حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمى عن علي بن أبي طالب ؓ .

ويقف الإنسان أمام تقدير الله ، وهو أن حاطب من القلة التي تعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة ، وأن تدركه لحظة الضعف البشرية وهو من القلة المختارة ، ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين .

ثم هذا عمر والشهامة تأخذه والغيرة تقتله يستأذن رسول الله ﷺ في أن يضرب عنق حاطب يقول فقد خان الله ورسوله والمؤمنين - فذلك إيمان حاد وحاسم وجازم في شدة عمر ؓ - ثم نرى رسول الله ﷺ وعظمته ، لا يعجل حتى يسأل - ما حملك على ما صنعت ؟ في سعة صدر وعطف .. قد علم رسول الله ﷺ لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق، ثم يكف أصحابه عنه « صدق لا تقول إلا خيراً » ليعينه وينهض من عشرته فلا يطارده بها ولا يدع أحد يطارده .

ومن ثم فإن الله تبارك وتعالى وهو الذي خلق النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ، ومهما كانت درجة الإيمان فإن النفس البشرية معرضة للضعف وتحكم بالآلف والعادة .. وعلينا تذكيرها أولاً بأول والصبر عليها .. تلك اللحظة وجب دفعها وإعادةها إلى طبيعتها بدوام طاعة الله ودوام ذكر الله والتحصن بالدعاء - قال بن عباس رضي الله عنهما : وكان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس] .

« قال اللهم أنت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » .. فإن الشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك ، وإن وفقه وأعانه ونجاه كان بفضل الله - فنسأل الله أن يعيدنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله ؟ ^(١) .

وروى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله لأنه ﷺ المبلغ عن الله .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتَتَّبِعُونَ آلَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا وَتُؤَيِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح] .

﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة] .

(١) رواه بن أبي حاتم عن أبيه عن بن الطنافسى عن يحيى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها (بن كثير

فاستجيبوا لربكم وأطيعوه وأرضوه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي الصحيحين عن الأعمش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني ^(١) .

وما على رسول الله ﷺ إلا البلاغ ،، وقد خاب وخسر من تولى وأعرض عن ذكر ربه وأصر على الباطل وعلى إتباع الهوى واستكبر عن الحق - والله لا يحب الجاحدين للإيمان العاصين لأمر الله ورسوله .

ويتطلب من المسلم أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضى على الشر ، وأن يتوجه بنشاطه ونفسه وحياته كلها لله .. فالنفس مرة تكون أمانة ومرة تكون لؤامة والثالثة مطمئنة ... وبالنفس الأمانة واللؤامة امتحن الله سبحانه وتعالى الإنسان ، وبالنفس المطمئنة أكرمه الله ونجاه ... ومخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه ،، ودوام الطاعة والذكر لله يحصن الإنسان من شيطان نفسه ويهديه إلى الحق فلا يميل عنه ،، والذين هم على الحق قائمون وبه يعدلون ، وعلى طاعة ربهم يحافظون ، لن يخذلهم الله أبداً عن الإستقامة والسلامة ،، وليس من باب يجد العبد فيه نفسه تقيه ومستريحة ومطمئنة إلا باب الحق سبحانه يهدي إليه النفوس فتكون راضية مرضية فمن يلزم نفسه ألزمته ، ومن لم يطالبها طالبته ، ومن لم يخضعها أخضعته ، ومن لم يملكها ملكته ... فأحذرهما وروضهما وجاهدتهما وحاسبهما وخالفهما تكن في رحمة الله وفي معية الله .. ومن كان كذلك فلا يضل ولا يشقى ولا يزيغ ولا يهوى .. والشقى هو الذي يلوم نفسه على فوات حظها وهواها. ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

الأمر الرابع : التشريع حق الله وحده ، والقول في الكتاب فصل وحكم قاطع .

١ - لا حاجة لدستور مساعد بعد دستور الله .

إنه لا يملك أحد أن يقترح على الله شيئاً ولا أن يزيد أو ينقص من تشريع هذا الدين أو

يعدل فيه أو يبدل حتى ولو كانت عبادة من العبادات القصد منها التقرب إلى الله وحده فلا يحدث فيها هيبة من عند نفسه .. فالتشريع من حق الله وحده أو حاه إلى رسوله ﷺ وأورثه الصالحين من عباده وأستلمه أصحاب رسول الله ﷺ ورجاله التابعين كاملاً شاملاً قائماً بأركانه ، ثابتاً بأعمدته وقواعده لا نقص فيه ، قوياً محفوظاً بأمر الله في كتاب الله ، جلياً في سنة رسول الله ﷺ ، عظيماً بمنهجه ، مستقيماً بشريعته وشريعته بما يكفل للناس أمورهم وحياتهم في كل شئون الدنيا ... ما ترك شيئاً إلا وقد دلنا عليه ، إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجمله تتلقى بيانها من رسول الله ﷺ ومن الإجماع أو من القياس الذي يثبت بنص الكتاب ، والكتاب فيه الحكم القاطع والقول الفصل في أمور الدنيا والآخرة ، ما ترك شيئاً دون تدبير يشمله وعلم يحصيه .. جاء مفصلاً أو تأصيلاً كله في دستور الله ، والأمة ليست بحاجة إلى دستور مساعد . قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر].

وقال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر].

وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة].

وكم من الآيات في كتاب الله تفيض جواهرها بمخزون الله من البلاغة والإعجاز وعلم الله الكائن بتدبيره وحكمته وتقديره ومشيئته ليشمل كل شيء في الحياة ، وما تحتاج إليه خلاقته « كله في منهج الله » .

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [التوبة] لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣١﴾ [الأنعام].

فليس من حق أحد كائناً من كان أن يخترع أو يقترح أو يغير من معالم هذا الدين ، كل ما تحتاج إليه البشرية من أمر الدين والدنيا من المعاش والميعاد والأحكام ، والحلال والحرام ، والثواب والعقاب ، والهدى والضلال ، والوعد والوعيد ، كل شيء في الوجود ، وبغير تحديد لا حدود له ولا قيود ... كله في كتاب الله .

جاء القرآن فيه بأصوله الثابتة ، وترك لرسول الله ﷺ مهمة شرحه وبيانه وإبلاغه وإعلانه لتوضيح جواهره وقوة سلطانه ، وتولى تشريعاته وأركانه - فكان رسول الله ﷺ الرسول الوحيد الذي آمنه الله على التشريع ، وما كانت مهمة الرسل السابقين إلا إبلاغ الرسالة .

لذلك قال سبحانه وتعالى في حق رسولنا الكريم مبيناً مقامه ﷺ ومكانته في الدعوة الإسلامية أمراً عباده بطاعته والولاء لشريعته .. ومحذراً إياهم من غضب الله وعقابه .

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

٢- محبة رسول الله ﷺ التزام بمنهج الله وشريعته .

وسته ﷺ ثابتة في الكتاب قولاً وفِعلاً وتقريراً بالشرح والإيضاح وقد أخبر الله تعالى أن تحقيق الإتياع لمنهج رسول الله هو علامة الصدق في محبته ، والمحبة لرسول الله ﷺ تكون في طاعته والالتزام بمنهجه وشريعته .

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].
والإتياع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم هو الغاية التي يبتدى بها الناس إلى الحق ويجمعوا عليه ولا يتفرقوا ، كما اجتمع عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى .

يقول سبحانه وتعالى فيما يجب من طاعة الله وطاعة رسوله .

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].
والذين عصوا الرسول وجحدوا وحداية الله تمنوا في موقف الحساب والجزاء لو سواهم الله بالأرض فصاروا تراباً مثلها: ﴿وَيَقُولُ الْكَٰفِرُ يُبَلِّغُنِي كُنْتُ رَبًّا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ].
وتمنوا أنهم لم يكونوا كتموا الله حديثاً لأن الله يفضحهم ويذلهم بشهادة جوارحهم عليهم .

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء].

والحب أن نقدر الرسالة التي جاء بها ﷺ ، وأن نصون معالم الحق المنزل .. الحب في التأسى به ، والالتزام بمنهجه .
ولا قيمة حب يقتصر على تحريك اللسان دون الحركة والجهاد والإتياع ... والناس في بداية الرسالة تفانوا في جهم لرسول الله ﷺ .

« فهذا زيد بن حارثة يختار البقاء معه ﷺ عبداً على إلحاقه بأبيه وقومه حراً ، قال زيد : ما أنا الذي أختار عليه أحداً أبداً»^(١) .

« وهذه امرأة من بنى دینار استشهد زوجها وأبيها وأخيها في معركة أحد وتقول أروني رسول الله أنظر إليه ، فلما رأته قالت : الحمد لله ، كل مصيبة بعدك تهون يا رسول الله »^(١)

« وهذا زيد بن الدثنة ﷺ أسره المشركون ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، فاجتمع رهط من قريش وفيهم أبو سفيان بن حرب قبل أن يسلم ، فقال أبو سفيان أتحب أن يكون محمد عندنا الآن نضرب عنقه مكانك ؟ .. قال والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه يقول : قال أبو سفيان : ما رأيت قوم قط أشد حبا لصاحبهم من أصحاب محمد له »^(٢)

« وهذا عمر بن الخطاب يقبل الحجر الأسود ويقول : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »^(٣)
لقد وعى المسلمون قول رسول الله ﷺ : والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين^(٤) .

وما كان رسول الله ﷺ يملك سلاحاً يحمل الناس على حبه وطاعته ، وما كان الإسلام ليسوق الناس بالسلاسل إليه ... إنها هو الإيمان الذي كان يملكه النبي ﷺ فيلين به الحديد ، ذلك الذي جمع حوله كل القلوب لتعلو على حدود الأجناس والأوطان ، ، هذا عربى ، وهذا فارسى ، وهذا حبشى ، وهذا رومى ، كلهم على قلب رجل واحد .. فتفجرت طاقات الإيمان بالتعاطف والتراحم بينهم جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .. لم تجد الفرقة طريقاً إليهم ، ولا الفتنة سبيلاً إلى صفوفهم ، كلهم أخوة في الإيمان .

... ومفتاح السعادة في اتباع سنة النبي ﷺ والإقتداء بمنهجه في جميع مصادرة وموارده وأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، وتقريراته - حتى في هيئة أكله وشرابه وقيامه ونومه وكلامه - في جميع عاداته ، كل العادات وليس فقط العبادات .. ومن لم يقتد برسول الله ﷺ في كل ما أمر به ونهى عنه وما اشتملت عليه شريعته التى أورثها لنا - كان بذلك مقصراً في الحفاظ على ميراث سنته ، خارجاً عن دينه ، لاحقاً بأعدائه .

(١) بن هشام ٩٩/٢ ، والرحيق المختوم ٢٧٣ .

(٢) صفوة الصفوة ١/٣٠٩ .

(٣) عن عابى بن ربيعة (متفق عليه) .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة - الفتح ١ (١٣٢ : ١٣٥) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا » (١).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ».

وفي رواية مسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

أي أنه من أنشأ أو اخترع من قبل نفسه فيما شرعه الله ورسوله ما ليس فيه فعلاً وقولاً واعتقاداً فهو مردود على فاعله .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقول في أمر قال فيه رب العالمين ، أو أمر به رسول الله ﷺ - لا تقول خلاف الكتاب والسنة - فلا قضاء في أمر لا يرجع فيه إلى قول الله تعالى في كتابه وقول رسول الله ﷺ في سته (٢).

وقال الإمام الشافعي : « إذا وافق كلامي الحديث فاعملوا به وإذا خالف كلامي الحديث فاضربوا بكلامي عرض الخائط » (٣).

وحاشا لله أن يكون رسول الله ﷺ قصر عن تبليغ الرسالة كاملة ، فالمعصوم عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، والذي يكلفه هو صاحب الأمر كله ، والذي يعود إليه الميراث كله ... ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الغربة (٤) والله يقول :

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [المائدة] .

وروي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حُلِي الكعبة وكثرته، فقال قوم : لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر ، وما تصنع الكعبة بالحُلِي ؟ فهم عمر بذلك وسأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ فقال : إن القرآن أنزل على النبي ﷺ والأموال أربعة « أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض ، والفقير فقسّمه على مستحقيه ، والخمس فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها ...

(١) ابن كثير ٤ / ٣٣٦ .

(٢) بن كثير ٢ / ١٠٤ .

(٣) كتاب الحرام - الإبداع في مدار الإبتداع للشيخ علي محفوظ .

(٤) من حديث عائشة البخاري ٣ / ١٢٠ .

وكان حُلِّي الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله ، ولم يتركه نسيانا ، ولم يخف عليه مكانه « أى لم يكن مكان الكعبة خافياً على الله » قال النبي ﷺ : فأقره حيث أقره الله ورسوله . فقال له عمر : لولاك لافتضحنا ... وترك الحُلِّي بحاله ^(١) .

وإن الأدب مع الله بالتقوى والخشية والحياء يتمثل في إدراك حدود العبد أمام ربه وأمام رسوله ﷺ - لا يقترح عليه ولا يتجاوز ما يأمر به ، وما ينهى عنه - كذلك لا يقضى فيما ليس له به اختصاص ، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه .

يقول النبي ﷺ : « والذي نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال « فمن » ^(٢) .

وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ فذكره وزاد - قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم القرآن .

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْفَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةٌ آَعَمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآٰخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾ [التوبة] .

أى فاحذروا يأهل النفاق والكفر أن تفعلوا فعل الذين من قبلكم وتسلكوا سبيلهم ، وقد أهلكهم الله بأعمالهم وأفعالهم كانوا أشد منكم قوة وبطشاً وأكثر أموالاً وأولاداً فتمتعوا بحظهم ونصيبهم من الدنيا ، وأنتم تفعلون الآن ما فعلوا ، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم « وخضتم كالذي خاضوا » قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم ^(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام لا ألقين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن - فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ،

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده (٦٥/٤) .

(٢) ابن جريج .

(٣) يقول بن كثير وهذا الحديث له شاهد في الصحيح - بن كثير ٢ / ٣٦٨ - م الطبري ١ / ٣٣١ ورواه

أبو معشر المقبري عن أبي هريرة .

وما وجدنا فيه من حرام حرمانه - «ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١) .
 فمن يأتمر بهواه لا يرى حجة يستضيء بها ، ولا يعي شيئاً يهتدى به - فقد خذله الله عن
 سبيل الرشاد ، ومن أدرك الحق وسلك سبيله واستقام على منهج الله الذي لا تؤثر فيه
 الأهواء فقد نجا ، وجلب لنفسه الخير كله - والهدى والرحمة من الله .
 ٣- كل شيء .. أى شيء .. فى كتاب الله .

إنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى
 يوم الدين .. هو الفاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه .. به كل علم نافع من خير ما
 سبق ، وعلم ما سيأتى .. تبياناً لكل شيء .. فكل شيء عند الله علمه ، يدبر سبحانه كل
 شيء ، ويرزق كل شيء ، ولا ينسى شيء - كل ما يسمى شيء - كل ما وقع حدث ، وما
 يقع وما يستجد .. كله فى كتاب الله .

﴿ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُؤْمَرُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى
 يقاد للشاه الجلاحء من الشاه القرناء »^(٢) فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجلاحء من
 القرناء .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : يا أبا ذر هل تدري فيم
 تنتطحان ؟ قال : لا ، قال عليه الصلاة والسلام : لكن الله يدري وسيقضى بينهما^(٣) .
 وسنتناول بيان عدل الله فى أنصبة الميراث القادمة بهذا الكتاب إن شاء الله رب العالمين
 - والحجة على الناس ببيان رسول الله ﷺ وفيه الرشاد والسداد والفلاح للعباد .
 ٤ - القرآن يفصل بين السابقين والمعاصرين .

السابقون اختلفوا فجاء القرآن ليفصل بينهم وبين لهم وجه الحق فيه ... اختلف
 النصرارى فى المسيح وفى أمه مريم كما ذكرنا قبل ، وفى مسألة صلبه ، ومن قبلهم حرف
 اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية .. وجاء القرآن يقول كلمة الفصل فى المسيح وأمه
 « إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأنه بشر » .

(١) صحيح الجامع ٧١٩٢ - وروى من طرق من حديث أبي رافع ، وأبي ثعلبة عن أبي هريرة (كتاب
 الإيمان لأبن تيمية) .

(٢) رواه مسلم (القرطبي ٣ / ٢٥٠٥) .

(٣) رواه الإمام أحمد (ابن كثير ٢ / ١٣٦) .

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف].

وجاء القرآن لبيان الأصل الذي أنزله سبحانه فقال :

﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ التَّنْفِيسَ بِالتَّنْفِيسِ وَالْعَيْتَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ

بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥].

وبين لهم تاريخهم وتاريخ أنبيائهم مجرداً من الأساطير والأوثان .. فظهر صفحات هؤلاء الرسل مما لوئتهم به الأساطير الإسرائيلية ، وحكم بينهم جميعاً فيما اختلفوا فيه بعد أن اتخذ بنوا إسرائيل أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وغيروا وبدلوا بعد ما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء.

قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَمُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل].

... والمعاصرون لكتاب الله بين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله

وتقريراته ما جاء فيه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

وقال جل وعلا : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدُنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ

لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل].

بين تبارك وتعالى لعباده أن كل شيء كتب عليهم ، كل صغير وكبير من أعمالهم مجموع عليهم ومسطر في الصحف ليوم الحساب .. كل ما فعلته الأمم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم في اللوح المحفوظ ، أو في كتب الحفظ ، أو في أم الكتاب « حسب تعدد الروايات » - وكل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، ومكتوب إذا فعلوا .. وترى المشركين خائفين مما كتب فيه من أعمالهم السيئة وتنادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله .

﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْتَدُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا

عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٢﴾ [القمر].

كله مسطور وهو كائن لا محالة - قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخل الصالحين من عباده الجنة قضاها لهم في الدنيا والآخرة .

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عٰكِلِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء].

قيل أن أرض الدنيا يستحقها المؤمنون الصالحون وبلاغاً لنفعه للذين عبدوا الله بها شرعه وأحبه ورضيه فأثروا الله وطاعته على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم^(١).

ولقد استخلف الله تبارك وتعالى آدم في الأرض لعبارتها وإصلاحها، وإستخدام كنوزها، واستغلال ثرواتها... ووضع سبحانه وتعالى للبشر هذا المنهج الكامل الشامل، وشرع لهم القوانين، وقد علم جلست عظمته ما يعترض الناس في حياتهم فجعل في المنهج حمايتهم وأمنهم - والصالحون من عباد الله يورثهم الأرض جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا ويورثهم الجنة في الآخرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

وكتب سبحانه وتعالى للمؤمنين النصر في الدنيا إنتقاماً من الكافرين الذين يقهروهم ويؤذونهم .. والنصر يوم القيامة - يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون على الأمم المكذبة لرسالتها بأن الرسل قد بلغوا أممهم رسالات ربهم^(٢).

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

ذلك بلاغ القرآن ليتفكر الناس ويعتبروا ويتعظوا ويستقر الإيمان في قلوبهم وقد أقيمت الحجة، ولا حجة بعد القرآن،، ولا عذر لأحد.

(١) م الطبري ٢ / ٦٢، بن كثير ٣ / ٢٠١ .

(٢) م الطبري (٢ / ٢٩٧).

٥ - عناصر الاجتهاد وشروطه على سنة رسول الله ﷺ .

الأمر الحادثة التي لم يتقدم فيها قول في الكتاب والسنة وقد رشد على الاجتهاد فيها - فإن باب الاجتهاد مفتوح لم يسد ، والعلماء المجتهدون يستنبطون الأحكام في إطار ما شرعه الله بالكتاب والسنة - وأقول لإخواننا الشباب الذين منحهم الله علماً يتحدثون به للناس في المساجد ، أو الذين يجتهدون أمثالنا في إلتباس الكمال والتقرب إلى الله .. لقد حمل الرسول ﷺ العالم المتساهل في الفتوى والمضل لغيره بتساهله إثم طالب الفتوى فقال فيها رواه عنه أبو هريرة وأخرجه أبو داود : « من أفني بغير علم كان إثمه علي من أفناه » وزاد سليمان المهري في حديثه « ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته »^(١) ولا يزال المرء عالماً ما طلب العلم حتى إذا ظن أنه قد علم فقد جهل .. وإذا كان لأحد منهم رخصة الكلام رسمياً بشهادة التخرج فليحذر لما يفتى به - فقد يترتب على فتواه فتنه تصيب الناس ، وليس لأحد الإحاطة بعلم كل شيء وقد رأينا في المساجد الكثير من الجدل لتعدد الآراء في موضوع القضية الواحدة ، فذلك الذي يتجاوز الحق فتقاده الأهواء ، ولا يترك في الناس إلا الحيرة والشك - فإذا ما كان الهوى متبعاً وأعجب كل ذي رأى برأيه تنازع الناس واختلفوا ، فتفقد الثقة في رجال الدين .

﴿ كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون] .

وتعدد الآراء لا يأتي إلا بالخروج عن خط الله المستقيم والمنهج القويم الذي يوحد كلمة كل المؤمنين ... أقول إن هذه ليست مهمتنا .. وأبواب الدين واسعة المعالم ، ويستطيع كل منا أن يؤدي دوره في إبلاغ ما تعلمه ويعلمه ، ولكن لكل منا حجم يقف عنده ويعرف حدوده وإلا فقد أفسد وهو يظن الصلاح ، فيهدى باجتهاده إلى البدعة والضلالة .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الكهف] .

﴿ [الكهف:] .

الاجتهاد مهمة العلماء المتخصصون وهم ورثة الأنبياء ، وليس من حقنا جداهم . بل علينا سماعهم وطاعتهم - إنهم يملكون الشروط التي تحقق الاجتهاد من أصول الأحكام في الشريعة ومنها :

أ - العلم بكتاب الله تعالى ناسخاً ومنسوخاً ومحكماً ومتشابهاً وعموماً وخصوصاً مجملاً ومفسراً .

(١) نقلاً من كتاب هذا حلال وهذا حرام للشيخ عبدالقادر عطا (ص ١٩) .

ب- العلم بسنة رسول الله ﷺ الثابتة من أقواله وأفعاله وتقريراته وما تواتر عنه عليه الصلاة والسلام في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته .

ج- العلم بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه - لاتباع المجتهد الإجماع ، ويجتهد برأيه في الإختلاف .

د- العلم بالقياس الموجب لرفض الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها .
إنها مهمة العلماء فأتركوها لهم ، فتلك الأمور لا تتوفر إلا لهم ليواجهوا بها قضايا العصر .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٨]

وقيل في أولى الأمر «الذين يحكمون بالعدل ويؤدون الأمانة» وقيل «هم أهل القرآن والعلم» قال الضحاك : هم الفقهاء والعلماء في الدين^(١) فالرجوع إلى الحق كما قال عمر بن الخطاب ؓ خير من التهادي في الباطل ، والسمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة - إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
٦- المشورة واجبة في غير الأحكام والنصوص .

والحق تبارك وتعالى يقسم بنفسه الكريمة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسول الله ﷺ في جميع الأمور ما كبر منها وما صغر - وتشريع الله له السمع والطاعة ، وعلى المؤمنين الإمتثال بالأمر .

﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]

ولم يكن رسول الله ﷺ فظاً ولا غليظاً ولا صحابياً في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويتشاور في الأمر .

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَقَّارٌ وَكَانَتْ فِطْرَةَ الْبَشَرِ عَلَىٰ خُلُقٍ لَّيْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [النساء: ٥٨]
وَاسْتَعْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]

فوجب المشاورة على رسول الله ﷺ وهو الحاكم للأمة .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد بينت لنا سنته الشريفة أنه ﷺ :

« شاور أصحابه يوم بدر ، وقالوا يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك » .

« وشاورهم في أحد أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو فأشاروا بالخروج فخرج معهم » .

« وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة وقتها - فأبى سعد بن معاذ وسعد بن عباد « السعدان » - فترك ذلك » .

« وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على زراري المشركين - فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال وإنما جئنا معتمرين - فأجابه إلى ما قال عليه الصلاة والسلام ^(١) .

وجمع رسول الله ﷺ المسلمين على كلمة واحدة يتفقون عليها فلا يستأثر أحد برأى دون ألفة الجماعة - وتلك المشورة ليست بالأحكام ، فالأحكام منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام .. وليست المشورة في أى مسألة ورد فيها نص في القرآن أو السنة التي تعد تشريعاً عاماً - فنلك مشورة لا جدوى فيها .

وإذا كانت المشاورة وجبت على أشرف الخلق ﷺ فهي من باب أولى أن يتشاور ملوك وحكام ورؤساء الدول الإسلامية بعده عليه الصلاة والسلام بأهل العلم والرأى والمشورة لبحث صلاح هذه الأمة .

وكان صحابة رسول الله ﷺ يمثلون لأمر الله ورسوله - وبركة سيدنا رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في مدة يسيره مع قلة عددهم نسبة إلى جيوش الروم والفرس والترك والصقالية والبربر وغيرهم ، وغيرهم . وكلهم قهروا .. وعلت كلمة الله وأظهر الله دينه على سائر الأديان ... وسيندم العصاة في جهنم على عدم طاعتهم لله ورسوله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١١﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أٰبَدًا لَا يُجَدُّونَ لِئَآءًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢﴾ يَوْمَ نُفَلِّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

حين بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل ؓ قاضياً لأهل اليمن وأراد أن يستوثق من

إمكانياته في القضاء فسأله بما تقضى؟ قال: بكتاب الله تعالى.. قال: فإن لم تجد؟.. قال: بسنة رسول الله ﷺ.. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد برأى ولا ألو «أى لا أقصر في الاجتهاد» فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله^(١).
٧- الاجتهاد في أمور الدنيا طاعة يرضى بها الإسلام.

وقد ترك الحق سبحانه للناس حرية التفكير والعقل في أمور الدنيا، تركه للاجتهاد، فمن أصاب فيه فله أجران ومن أخطأ فله أجر - عن عمرو بن العاص ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر^(٢).

ورحم الله الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية^(٣) - كان وهو في باريس حدث عنه أن أحد المستشرقين قال له: أليس في آيات القرآن.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال: بلى.. قال له: فهات لى من القرآن.. كم رغيفاً يوجد في أردب القمح؟ قال الشيخ: نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال.. فقال المستشرق: أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط في شيء.. قال الشيخ: هذا القرآن هو الذي علمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر فقال^(٤): ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء].

وكل اجتهاد يرد إلى أهل الاجتهاد: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء].

(١) رواه أحمد ٥/٢٣٠ - وأبو داود ٣٥٧٨ - والترمذي ١٣٣٧ - ورواه ابن ماجه (ابن كثير ٤/٢٠٥) وقال الخطابي في معالم السنن يريد الاجتهاد في رد القضية من طريق القياس إلى معاني الكتاب والسنة ولم يرد الرأي الذى يسمح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة (عون المعبود في شرح سنن أبو داود ٩/٣٦٩) (الشعراوي ١٣/٨١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٧١٦ وصحيح البخاري ٧٣٥٢.

(٣) الشيخ محمد عبده من رجال الإصلاح والتجديد وله تفسير للقرآن الكريم ورسالة التوحيد وأصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى في باريس وقد تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم الأزهر وتوفى بالأسكندرية عام ١٩٠٥ (الإعلام للزركلي) ٦/٣٥٢.

(٤) الشعراوي ١٣/٨١٤٩.

فلاجهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما صدر عن رسول الله وعن الإجماع ، وعن الأئمة المجتهدين موجود كله في القرآن ..

ورسول الله ﷺ حينما رأى الناس يؤبرون النخل^(١) وهو ما يعرف بعملية الإخصاب حيث يأخذون من الذكر ويضعون في الأنثى .. قال لهم النبي ﷺ لو لم تفعلوا لأثمر .. ففي الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يثمر النخل ،، فلما سُئل رسول الله ﷺ عن ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »^(٢) .

وفي ذلك أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح - فقال : فخرج شيصا - فمر بهم فقال ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا - قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم .
قال فضيلة المرحوم الشيخ الشعراوي « لا يصح في حق رسول الله ﷺ أن يقال عنه أنه يشير على الناس بشيء ويتضح خطأ مشورته ، إنها الرسول عليه الصلاة والسلام هنا يريد أن يوصل قاعدة في نفوس المتكلمين في شئون الدين « إياكم أن تقحموا أنفسكم في الأمور المادية العملية التطبيقية فهذه الأمور يستوى فيها المؤمن والكافر » - ولذلك عندما اكتشف العلماء كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس أعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم في قضية لا دخل للدين فيها - وقد صعد العلماء إلى كواكب أخرى وصوروا الأرض وجاءت صورتها كروية فعلاً - « فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين بابا لا تستطيعون غلقه »^(٣) .

وما كان يجب على هذه الأمة أن تتنازع أو تختلف إنها أمة واحدة ودين واحد وكتاب واحد تخضع لإله واحد ورسولها واحد .

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون].

وما يجلب التنازع والاختلاف إلا التخاذل والفشل والتفكك فتذهب القوة والحدة وكما ذكرنا في حديث رسول الله ﷺ « تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها »^(٤) ، فلا بد من الرجوع إلى الله ورد الاختلاف إلى منهجه وتحكيم رسوله ﷺ .
الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه - وأمر تبين غيه فاجتنبوه - وأمر اختلف فيه فإلى الله ورسوله ردوه .

(١) أي يلقحونه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٣٦٣ من حديث أنس بن مالك .

(٣) الشعراوي ١٣ / ٨١٥٤ .

(٤) أخرجه أبو داود ٤٢٩٧ وابن عساكر عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ - ورواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا أَنفُسَكُمُ وَأَذْهَبَ بِمِحْكَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال]. ﴿١٦﴾

فالْحَكْم من عند الله قاطع وفاصل بالعودة إليه وإلى رسوله وإلى أولى الأمر في كل اختلاف .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب]. ﴿٣١﴾

فليس لأحد المخالفة أو إبداء الرأي - ولا إختيار لأحد - كل شيء تحت أمر الله ، ومن يعص الله ورسوله فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]. ﴿١٣﴾

الأمر الخامس : شهداء الله في الأرض وخير أمة أخرجت للناس .

١ - العلم والتعلم والتناصح حق للجميع :

إن العلم ليس له وطن ولم ينفرد به أحد بعينه ، أو جيل بعينه .. وليس حكراً على أحد - لقد شرف الله العلماء وهم خواص هذه الأمة بحمل الأمانة لأنهم ورثة الأنبياء - ولكن الأمر الموجه لرسول الله ﷺ هو أمر لأمة - وأبناء الأمة مكلفون في كل موقع وعلى أى مستوى بالتبليغ عن الله أسوة برسول الله ﷺ كل بقدر ما أفاض الله عليه من علم الله الذى لا ينتهى ونعمته التى لا تزول - وسيبقى التعليم والتعلم جوهر الإسلام ، فمتعلم يطلب الهدى والرشد ، وعالم يطلب المزيد - فهما شريكان في الخير .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال يعود السبب فيه إلى إهمال التناصح بين الناس ، والتواكل في أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران]. ﴿١١٠﴾

إن لهذه الأمة المعتدلة على ملة إبراهيم والشاهدة للأنبياء أنهم بلغوا أممهم رسالات الله

وشهداء الله في الأرض والتي خصها الله سبحانه بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب - لها القيادة والطلائعة على كل الأمم لكونها خير أمة أخرجت للناس تنقذهم من الشر ، وتحميهم من الفساد ، وتقضي على الفتنة بين المسلمين ، فتعود بهم إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها في التواد والتراحم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، تقف بأبنائها صفاً واحداً موحداً لله ، لا تدخله التفرقة إليهم من أى باب - فإذا ما تسلط عليهم الشيطان وغلبت عليهم الأهواء سرعان ما وجدوا من يعيدهم إلى فطرتهم ويرشدهم إلى سبيل الهدى والسلام .

أمة هي خير الأمم تدعوا إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتمنع الشر من الإقتراب إليها فتواجه الطواغيت بشدتها وجبروتها بتوجيه الله ، وتصون الإسلام من عبث العابثين وفساد المفسدين وعبدة الأهواء وأصحاب المصالح والشهوات .
وأنتفع الناس للناس في هذه الأمة أتقاهم وأوصلهم للأرحام وفيهم أشرف خلق الله وأكرم المرسل على الله .

قال الإمام أحمد عن يزيد بن مسيرة قال : سمعت أبا الدرداء سمعت أبا القاسم ﷺ وما سمعته يكتبه قلبها ولا بعدها يقول : إن الله تعالى يقول يا عيسى إنى باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم . قال : يارب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيتهم من حلمي وعلمي .

وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : «إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» فقال عمر يا رسول الله فهلا استزدته فقال : استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفاً .. قال عمر : فهلا استزدته قال : « قد استزدته مع كل رجل سبعين ألفاً» ، قال عمر : فهلا استزدته «قال استزدته فأعطاني هكذا ...»
فما زال رسول الله ﷺ يستزيد وي زيد الله أمته من رحمته (١) .

ذلك شأن هذه الأمة التي لها الطليعة والقيادة .. الأمر بالمعروف فيها والنهي عن المنكر مهمة السلطان صاحب الأمر وولى الأمر ، والتنفيذ مهمة العلماء ورثة الأنبياء ، فهم أمناء الله تعالى علي شرعه ، والحافظون لدينه ، والقائمون على حدود الله .. وهم أئمة الناس ، وقادة الخلق ، يسرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم، وبما

يرشدونهم إليه من التحلي بالفضيلة، والتخلي عن الرذيلة، علماء الأمة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - الذين نصرهم الله بنصر السابقين وثبت لهم الأمر بثبات سلفهم الطاهرين فدعوا إلى الخير والصلاح ودفعوا الناس إليه وقاوموا الشر والفساد ونهوا الناس عنه . ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١) [الحج].

وتلك دائماً صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه ، والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء . عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون أى الخلق أفضل إيانا» قلنا: الملائكة . قال : « وحق لهم بل غيرهم » قلنا : الأنبياء . قال : « وحق لهم بل غيرهم » .. ثم قال رسول الله ﷺ : أفضل الخلق إيانا قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يجدون ورقاً فيعملون بها فيها وهم أفضل الخلق إياناً^(٢) وقيل قلنا : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ قال : نعم قوم يحيثون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني^(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « إن أمامكم أياماً الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله » قيل يا رسول الله : منهم ؟ قال : « بل منكم »^(٤) .

وقال عمر بن الخطاب ؓ في تأويل قول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

قال: من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . فذلك من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين ويكثر فيه الفسق والهرج ويذل المؤمن ويعز الفاجر ، ويعود الدين غريباً كما بدأ غريباً ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل - إلا أهل بدر والحديبية^(٥) .

(١) في مسند أبوداود الطيالسي .

(٢) رواه صالح بن جبير عن أبي جمعه .

(٣) رواه أبو ثعلبة الخشني .

(٤) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ٢ (١٥١٩ ، ١٥٢٠) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران].

وقلوب المؤمنين دائماً متحدة في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم يتناصرون في الخير ، بعضهم أنصار بعض وأعاونهم على عكس المنافقين الذين اتفقت طباعهم وأفعالهم وأقوالهم على دس الفتن والمؤامرات وتعددت سبائهم في اللؤم والمكر والخداع والغش والخيانة والغمز واللمز، والإنحراف عن طريق الله ، فتراهم جبناء عن المصارحة والمواجهة ، لا يستريحون للحق ولا يخشون إلا الأقوياء من البشر . يذلون لهم بضعفهم وجبنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف .

قال الله تعالى في المؤمنين والمؤمنات :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾ [التوبة].

ووعدهم الله سبحانه وتعالى جنات الخلد التي يسكنها النبيون والصديقون والشهداء، وعدمهم الإقامة فيها ، ومن دخلها لا يخرج منها ، قصورها من اللؤلؤ والياقوت والله أعلم بها ، فقد أعدها سبحانه وتعالى لهم ووعدهم بها ، يتمتعون ببساتينها التي تجري من تحتها الأنهار ومساكنها الطيبة يقيمون فيها أبداً ولا يزول عنهم نعيمها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ فِي رِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٧٢﴾ [التوبة].

وقال سبحانه وتعالى في المنافقين والمنافقات :

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [التوبة].

فهم الخارجون عن طاعة الله لذلك كان الوعد لهم بنار جهنم يمكنون فيها أبداً وهي كافيتهم عقاباً على معصيتهم وخروجهم عن شريعة الله ، فأبعدوا من رحمة الله ، وعذابهم في جهنم دائم لا ينقطع .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَعْنَةُ الْعَدَابِ مُؤِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة].

٢- وجوب اللعنة للكافرين لا توقف دعوة الناصحين .

وقد لعن الكافرون في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي القرآن - لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلق الله - كتب الله على بنى إسرائيل السخط واللعنة إستجابة منه سبحانه وتعالى لأنبيائهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإفقادهم فإذا هم يعصون ويكفرون ويرتكبون المآثم والمحارم ، ولا ينهى أحد منهم احدا .. ينهاهم علماءهم فلا يتنهوا وقد جالسوا الأثمين في مجالسهم وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم .. تلك كانت سياتهم وطابعهم على مدار التاريخ .. فهم الذين نقضوا العهود والوعود التي عاهدوا بها نصر أنبيائهم ، فكذبوهم وقتلوهم .. كانوا يجحدون حجج الله ويقتلون الذين يأمرون بالعدل وينهون عن إرتكاب المعاصي .

وقد روى أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا في أول النهار . فقام مائة رجل من عباد بنى إسرائيل من أتباع الأنبياء فنصحوهم وذكروهم - فقتلوهم من آخر النهار جميعا ، وفيهم نزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وقيل مائة وإثنى عشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل أمروا ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا ، وقيل مائة وسبعون رجلاً^(١) .

فدمهم الله تعالى بما ارتكبه من المعاصي والمآثم والمحارم . إذ كذبوا آيات الله واستكبروا على رسلهم وعاندوهم وتعاضموا على الحق واستكفوا عن اتباعه .

فجعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين . قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّمُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِنْ رَبُّكُمُ وَعَلَهُمُ الْيَقِينُ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٣٩٨ - وابن كثير تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٥٥ .

فالذين يؤدون واجب الله وحقه في الدعوة إليه بالمعروف والنهي عن المنكر والتخفيف من الآثام والمعاصي والحرمات علم الله أنهم قد أدوا واجبه نحو تلك القلوب العاصية - ولعل الموعدة تحرك مشاعرهم فتشير فيها تقوى الله .

فرقة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فهي الناهية عن المعصية ، والفرقة الأخرى فرقة العصاة الذين كتب الله عليهم الهلاك ، والثالثة تقول للأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر لا فائدة مع هؤلاء العصاة ... ولكن الفئة المؤمنة لا تكل من دعوتها إلى الخير .. فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة قضى الله على الظالمين بالهلاك ونجى الناهين عن المنكر ، والذين تحايلوا على السبب الذي كانت تأتهم الحيتان فيه . واجترأوا على مخالفة أمر الله فاصطادوا يوم السبت ، أوحى إليهم الشيطان فقال إنما نُهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فتحايلوا على الصيد فيه .. هؤلاء ما يخدعون إلا أنفسهم - قال سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ ٧٤ ﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٧٥﴾

[البقرة] .

فلما نسوا ما ذكروا به مسخهم الله قردة أذلاء مبعدين ومطرودين من رحمة الله عقوبة لما سبق من ذنوبهم السالفة ، وعبرة وموعظة للمؤمنين .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتقى الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة] .

ثم قال: « كلا » والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على

بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم ^(١) .

قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي ونهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسوه في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال « لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » ^(٢) .

ولما تنزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

فهمها قوم على غير موضعها يتوهمون أن الإنسان إذا فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه في نفسه فقد أدى ما عليه - وقد بين أبو بكر الصديق ؓ خطأ الذين قعدوا عن الواجب وأعتبروا هذه الآية أنه لا حرج عليهم في الأمر والنهي لغيرهم فقال : إنكم تقرأون هذه الآية فتضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه - فبذلك يتضح المعنى أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى ^(٣) :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء: ١٥] .

فلا يمنع التكليف بالدعوة إلى الله بكلمة حق تقال ، أو نصيحة تبذل ، أو معروف تدل عليه ، أو منكر تحذر منه ، أو موقف تفقه فعلاً أو تركاً كما يأمر الدين .. فالدعوة ليست مقصورة على الدعاة المتخصصين .. وعلى كل من عرف حقيقة أو علماً أن يدرك أنه قد وجب عليه البيان .

والذين يدعون الناس إلى البر والخير والصلاح وينهونهم عن الشر والفساد والمعصية ويأخذون بأسباب النصر إبتغاء نشر الحق والعدل والحرية ، وقمع شهوات الناس في الفتنة والمعصية وغضب الله ، ومطامعهم في الأذية لخلق الله ... فإن الله ناصرهم بإذنه

(١) رواه أبو داود والترمذي قال حديث حسن وهذا لفظ أوداود ، والثاني لفظ الترمذي .

(٢) قوله تأطروهم أى تعنفوهم - وقول ولتقصرونه أى لتحبسنه رواه الإمام أحمد عن أبي عبيدة عن عبد الله .

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة عن أبي بكر الصديق ؓ .

ومؤيدهم ويمكنهم في الأرض ... فإنهم لا يقعدون عن معروف وهم قادرون على تحقيقه ، ولا يبقون على منكر وهم قادرون على تغييره ، إنهم يعترفون بسلطان الله ويحكمون شرعه ، ويدركون بالإيمان حقيقة التوكل عليه وإحتساب الأجر عنده ... ولا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان في إنكاره للباطل ، وهو أن لا يتخلى عن الإنكار ولا يستسلم ، فيلحق به الضعف والسلبية .. ولا مكان لهما مع الإيمان والمؤمن الصادق .
 ٣- الأمر والنهي تكليف للجماعة بالسمع والطاعة .

الإسلام يزيد للقائمين على الدين أن يؤدوا أماناتهم التي استحفظوا عليها فيقفوا في وجه الشر والفساد والظلم والطغيان والإعتداء ، ولا يخاف في الله لومة لائم .. وإنها لأمانة في عنق كل فرد قبل أن تكون عامة في عنق الجماعة .

روى الإمام أحمد عن عدى بن عميرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحقرن أحدكم نفسه - قالوا : يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه - فيقول الله يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس - فيقول : فيأبى كنت أحق أن تحشى ^(١) .

بذلك فإنه يتطلب من كل أمة المسلمين أفراداً وجماعات - من علم منهم شيئاً فليعلمه ، ومن رأى منهم منكراً فلينكره ويغيره ما استطاع - فالأمة كلها مطالبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن يعرف حكماً فليأمر به ولا يخفى عن الناس علماً وهدى الله له ، والأجدر بمن يأمر وينهى أن يكون أول العاملين بقوله .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ^(٢) .
 وعن أبي مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم

(١) تفرد به ابن ماجه (بن كثير ٢ / ٨٤) .

(٢) رواه مسلم .

خلف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون - فمن اهدم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل^(١) .

وعن أبي الوليد عبادة بن الصامت ؓ قال : باعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منسطينا ومكرهنا، وعسرنا ويُسرننا، وأثره علينا^(٢) ، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرةً بواحاً عندكم من الله فيه برهان^(٣) .

وعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب - فتح ذال يوم من ردم بأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها ، فقلت يارسول الله : أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث^(٤) .

وعن أبي سعيد الخدري ؓ عن النبي ﷺ قال : أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر^(٥) .

وعن أبي زيد « أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما » قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بل ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتيته^(٦) .

(١) رواه مسلم .

(٢) النص لفتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٨ / ٦٠١) الحديث رقم ٧٠٥٥ وبه (وأثره علينا) - والمراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا يتوقف على إيصالهم حقوقهم بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم) - وفي رياض الصالحين بالحديث ١٨٦ ص ٧٨ (وعلى أثره علينا) وعلى أن لا ننازع الأمر أهله - وزاد (وأن نقول بالحق أننا كنا لا نخاف في الله لومة لائم).

(٣) المنشط والمكروه بفتح ميمهما أي (في السهل والصعب - والأثره) الاختصاص بالمشترك ، وبواحاً: أي ظاهراً - والحديث متفق عليه نقلاً من رياض الصالحين .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن .

(٦) قوله تندلق معناه تخرج ، والأقتاب هي الأمعاء - والحديث متفق عليه .

ومتى صار عامة الناس يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بأذانهم تزول عنهم وحشتها ويقبحها من نفوسهم ، ويتجرأ على ارتكابها الكثيرون - فتحل بهم لعنة الله وغضبه ما جل بالآخرين .

والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالإستطاعة .

قال عبد الله بن مسعود يحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره^(١) .

وعن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ - قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم - قلنا : يارسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في أراذلكم « أو رذالتكم »^(٢) وفي حديث حذيفة ؓ قلت للنبي ﷺ : يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما سيذا أعمال أهل البر ؟ فقال : إذا أصابكم ما أصاب بنى إسرائيل . قلت يارسول الله : وما أصاب بنى إسرائيل ؟ قال : إذا داهن خياركم فجاركم ، وصار الفقه في شراركم ، وصار الملك في صغاركم فعند ذلك تلبسكم فتنة تكرون ويكر عليكم^(٣) .

وروى الترمذي عن حذيفة ؓ عن النبي ﷺ قال : والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا تستجاب لكم^(٤) .

وروى بن جرير الطبري في تاريخه نقلاً عن الإمام علي بن أبي طالب ؓ أنه قال : أيها المؤمنون إنه من **أبى** عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم ويرى «أى» رأ من الإثم وسلم من العقاب إن كان عاجزاً ومن أنكره بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى

(١) سير إعلام النبلاء - والقرطبي ١٣٩٩ / ٢ .

(٢) قال زيد معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالتكم أى إذا كان العلم في الفساق . القرطبي ١٤٠١ / ٢ .
والحديث أخرجه ابن ماجه .

(٣) حياة الصحابة للكاندوهلى ٦٤٢ / ٢ .

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن (بن كثير ٣٩٠ / ١) .

فذلك الذى أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين ... وقال عليه السلام إن الحق ثقيل مرئ وإن الباطل خفيف وبئ « المرئ من مرأ الطعام أى هنئ حميد العاقبة ».

قال تعالى: ﴿ فَكُلُوْهُ هَيْسًا مَّارِئًا ۗ ﴾ [النساء].

والحق وإن ثقل إلا أنه حميد العاقبة ، والباطل وإن خف فهو وبئ وخيم العاقبة - وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق - وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر - وقال عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصارى: يا جابر قوام الدنيا بأربعة: « عالم مستعمل علمه - وجاهل لا يستنكف أن يتعلم - وجواد لا يبخل بمعروفه - وفقير لا يبيع آخرته بدنياه ».

.. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم « لاستواء العلم والجهل في نظره ... وإذا بخل الغنى بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه لأنه يضطر للخيانة أو الكذب حتى ينال بها من الغنى شيئاً » .

يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه - فمن قام الله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء « أى نصبها له » . ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء . وقال عليه السلام : إن لله عبادةً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوا « أى يبقياها ويحفظها مدة بذلهم لها » فإذا منعوا نزعتها منهم ثم حوّلها إلى غيرهم ^(١) .

ويقول عدي بن حاتم رضي الله عنه : إن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وإن منكركم اليوم معروف زمان يأتى ، وإنكم لن تبرحوا الخير مادمتم لا تعرفون ما كنتم تنكرون ولا تنكرون ما كنتم تعرفون ، وما قام عالمكم يتكلم بينكم غير مستخف ^(٢) .

زمان يرفع فيه من أهل العلم والدين ويكثر الفسق والهرج - يُذل المؤمن ويعز الفاجر ويعود الدين كما بدأ ، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر ، فإذا لم يتم تغيير المنكر كان الهلاك .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . والفترة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفاً عليها بين الناس ، وتنكر الفترة كل الأمور المنكرة حتى ممن يفعلها - لذا وجب على المسلمين أن يتحملوا مسئولية

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ٤ (٨٨ : ٩٢) .

(٢) حياة الصحابة ٢ / ٦٤٢ .

هذه الأمانة حفظاً للشريعة وصوناً للأحكام ، وحتى لا يختل النظام بتجاوز المعتدين وذوى الشهوات والأهواء الفاسدة .

والإنتهاء للإسلام يتطلب منا المزيد من العطاء - كل على قدر استطاعته ، فكل من وهبه الله علماً فلا يبخل به ، وكل من وهبه الله قدرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله فيها ... فليحقق شرط الله في طاعته وإلا فقد تاهت وتاهت .. فخوت القلوب من الحياء واحترام الدين الذى فيه الحياة .

٤ - الدين النصيحة .

عن تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : الدين النصيحة .. قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم ^(١) .

النصيحة كلمة تعبر عن إرادة الخير للمنصوح له ، وليس كلمة تعبر عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصح فى اللغة الخلوص - يقال نصحت ونصحت له .

وقال الخطابي « النصيحة كلمة جامعة معناها حياة الحظ للمنصوح له - وبذلك حصر رسول الله ﷺ الدين فى النصيحة .

وعن جرير بن عبد الله ؓ قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ^(٢) .

وعن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(٣) .

النصيحة لله هي الإيمان بالله ووجدانيته فلا تجعل الله ندا فى ذاته ولا فى صفاته ولا تعبد غيره أو توجه إليه بالدعاء - ملكاً كان أم شيخاً ، نبياً كان أو ولياً .. كل شيء لله وموالاته من أطاعه ومعاداة من عصاه ، وأمن الله لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا نضره معصية من عصاه - فالنصيحة مردها للعبد يكسب خيرها ويبنى ثمار العمل بها .

والنصيحة لكتابه هي التصديق والإيمان بأنه كلام الله تعالى نتهدى بها فيه ونتدبر معانيه ، ونحل حلاله ونحرم ما حرمه ، ونؤدى حقوق تلاوته ، ونتعظ ونعتبر بمواعظه وزواجره .

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

والنصيحة لرسوله ﷺ « تصديقه فيها جاء به واتباعه فيها أمر به ونهى عنه وتعظيم حقه والعمل بشرعه وستته » .

والنصيحة لأئمة المسلمين بإعانتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ، وتذكيرهم بحوائج العباد .

... والمراد بأئمة المسلمين قادتهم في تنظيم شئون الدنيا ، وفي إقامة معالم هذا الدين ، وأما عامة المسلمين بأن تدلهم على طريق الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاتهم عن المنكر .

« تلك كانت أهم الأمور التي وجب علي المسلم الإحاطة بها قبل أن نتوجه إلي بعض الكنوز الربانية والنفائس الكريمة النبوية في ميراث حضرة النبي ﷺ » .

وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجا بعد نصر رسوله ﷺ . فقال بعضهم : أمرنا الله أن نحمده ونستغفره إذ نصرنا وفتح علينا- فقال عمر لابن عباس رضي الله عنهما : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ قال بن عباس : لا .. هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ نَوَابِغًا ﴿٣﴾﴾ [النصر] .

قال عمر لا أعلم منها إلا ما تقول^(١) .

والذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أن الله أمر إذا فتح عليهم المدائن والحصون أن يحمداوا الله ويشكروه ويسبحوه ... وما فسر به بن عباس وعمر رضي الله عنهما أن هذه السورة نعى فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة أى « وأعلم أنك إذا فتحت مكة وهى قريتك التى أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا فتهيا بارسول الله للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا » :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرِّصْ ﴿٥﴾﴾ [الضحى] .

وروى الإمام أحمد « وحدثنا أبو اسحق عن الأوزعى حدثنى أبو عمار ، حدثنى جابر بن عبد الله : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله فسلم على فجعلت أحدثه عن إفتراق الناس وما أحدثوا .. فجعل جابر يبكى ، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا^(٢) .

(١) تفرد به البخاري (ابن كثير ٤ / ٥٦١) .

(٢) ابن كثير ٤ / ٥٦٣ ، القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٥٧٥ .

ولما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص ففرحوا واستبشروا - وبكى العباس ، فقال له النبي ﷺ : ما يبكيك يا عم ؟ قال : نعت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » - فعاش بعدها ستين يوماً ما رُئى فيها ضاحكاً مستبشراً ... وفي حجة الوداع أعلن رسول الله ﷺ كمال الرسالة وتمام النعمة فأكمل الله هذا الدين - وما عادت فيه زيادة لمستزيد - فهو المنهج الشامل الذي ارتضاه الله وقد كملت شرائعه وأحكامه - وأظهر الله دين الإسلام على سائر الأديان .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة].
ويكي عمر بن الخطاب ؓ: قال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قال عمر : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص - فقال له النبي ﷺ «صدقت»^(١).

فقد أحس عمر بفراسته وبصيرته الواصلة وبقلبه المؤمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اقترب لقاءه بالله ، وأنه قد دنا يوم القراق واقترب ...
ومع إكمال الدين فإن المنهج الذي شرعه الله صار سارى المفعول إلى أن تقوم الساعة ... صالح لكل مكان وزمان ، يمتوى ويسع كل ما يستجد من تطورات وحضارات ورقى بين الأمم في دنيا الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
وتركنا رسول الله ﷺ ، ولكنه ترك لنا ميراثاً من الأنصبة الذهبية والتفيسة - من عمل بها وآمن واتقى الله فيها فاز بسعادة الدنيا والآخرة .

روى بن ماجه وغيره عن العرباض بن ساريه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب - فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فما تعهد إلينا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ... من يعش منكم فسيرى إختلافاً كثيراً - فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم والأمور المحدثات - فإن كل بدعة ضلالة ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حينها قيد إنقاد^(١) .

(١) أخرجه الترمذي بمعناه وصححه (النص نقلًا من القرطبي ٣/٢٦٥٨).